ومضات برقت
عبر سنين مضت

2 - 8

د. محمد بن موسى الشريف



رحلتي في طلب العلم

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

رحلتي في طلب العلم

الطبعة الأولى

1438هـ - 2017م

رقم الإيداع:	٢٠١٦ / ٢٥٤٥٤
الترقيم الدولي:	978-977-6581-15-9

مركز إبصار للنشر والتوزيع

القاهرة- العجوزة- شارع المنتصر

محمول: 00201062532813

E.mail: ebsar2015@Gmail.com

• ومضات برقت عبر سنين مضت

رحلتي في طلب العلم

بقلم

محمد بن موسى الشريف

الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه هي رحلتي في طلب العلم، سطرتها في هذه الوريقات؛ لعلها أن تكون مفيدة لأحد من الناس، لاسيما لمن سألني وألحّ عليّ مراراً، وطلب مني أن أبين له كيف كان طلبي العلمَ، وكيف وفقت بين شقي العلم الطبيعي والشرعي وما يلحق به من علوم الآلة.

وقد سُئلت هذا السؤال مئات المرات في محاضرات ومناسبات عامة وخاصة، وفي رسائل هاتفية و«إنترنتية»، وكنت أرفض أن أُجيب عن تلك الأسئلة بشيء لما جُبلتُ عليه من الخجل من الحديث عن نفسي، ولما أجده من حرج في إضاعة وقت محاضرة أو محفل بالحديث عن نفسي، وكنت أصرف السائلين بالحديث في شأن العظماء من سلفنا وخلفنا - رحمهم الله تعالى - فهم الأحق بالحديث في الجملة وهم مقدمو الأمة، لكنني في هذا الكتاب لن أضيع وقت أحد إلا بإذنه؛ فالكتاب معروض لمن أراده، فذاك الحرج منتفٍ إذن بهذا التأليف على هذا الوجه، والله المستعان.

وسأبدأ بذكر طلبي العلمَ الطبيعيّ، ثم أُعَرّج على طلبي العلمَ الشرعي وعلوم الآلة.

وليس يعني تأليفي لهذه الرسالة إلا البيان والتوضيح لطريقة طلبي العلم، أما أن يكون المراد هو الإخبار عن أمر مضى ولم يعد لي حاجة فيه فمعاذ الله؛ فالمرء

يظل متعلمًا إلى أن يوافيه حمامه، ويأتيه أجله، فمن ظن أنه علم فقد جهل، ومن دلائل توفيق الله – تعالى – لطالب العلم أنه يظل مقبلاً على التعلم، معترفًا بالنقص إلى أن يأتيه اليقين.

وهذه الرسالة هي ثاني رسالة بعنوان رحلتي مع كذا، والرسالة الأولى كان عنوانها «رحلتي مع القراءة»، والثالثة بعنوان «رحلتي مع التأليف»، وبهذه الرسائل الثلاث أكون قد بينت مساري الشرعي والثقافي والفكري نوع بيان، ويبقى مساري الدعوي الذي سوف أبينه في الجزء السادس من كتابي: «ذكرياتي»، إن شاء الله تعالى.

وكان الجزء الأول بعنوان «رحلاتي» وهو الذي سطرت فيه معظم رحلاتي إلى قارات الدنيا الست في حوالي ٣٦ سنة.

وكذلك كتبت كتابًا بعنوان «مذكرات طيار» يصلح أن يكون الجزء الثاني من ذكرياتي.

وأرجو ألا أكون قد كتبت ما كتبته رياءً ولا سمعة، ولا طلبًا للفخر، ولا للتميز على الأقران، أعوذ بالله من ذلك القصد فهو عين الخسران، وطريق إلى الخذلان، وسخط الرحمن، أسأل الله العافية من ذلك، والنجاة من عاقبة ما هنالك، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

– هذا وقد ذكرت من قبل أني ترددت في الكتابة عن ذكرياتي، فقد تنازعني فيها أمران:

الأول: مفسدة الحديث عن النفس والتوسع في ذكر ما فعله المرء في حياته.

الآخر: مصلحة اطلاع طوائف من الناس على ما سأكتب، والاقتداء به إن رأوه نافعًا مفيدًا.

فاخترت الآخر مع محاولة التقلل من التركيز على الحديث عن النفس قدر الإمكان، والله المستعان، وعليه التكلان.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا

العبد المذنب الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
mhmalshareef@gmail.com
الموقع : www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

●●●

المبحث الأول:

طلب العلم الطبيعي

- تقويم تدريس تلك المواد.
- دراسة اللغة الإنجليزية.
- دراسة اللغات الأجنبية.
- دراسة الطيران.

قد استقرت تسمية العلوم التي تُعنى بالطبيعة التي خلقها الله -سبحانه وتعالى- بالعلوم الطبيعية، نسبة إلى الطبيعة، ومن بداهة العقول أن الطبيعة لا تخلق شيئًا، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشوراً، وما أسخف عقولَ الدهريين الطبيعيين من «الشيوعيين» و«الملحدين» الذين يقولون بالصدفة والطبيعة، وأن هذا الكون قد خلق نفسه، والعياذ بالله من الجحود والكفر والإلحاد، وقد كان لأولئك القائلين بذلك، والمعتقدين صحة ما هنالك دولة وسلطان، لكن اضمحل كل ذلك، ولم تعد لهم دولة ولا قوة بسقوط الاتحاد السوفيتي الهالك أوائل القرن الهجري الخامس عشر، أواخر القرن العشرين الميلادي، وبسقوط دولة الطغيان انحسر المد الشيوعي، وضعف سلطانه على مئات الملايين التي كانت تدور في فلكه، وترتضي فكره وعقيدته، فاللهم لك الحمد.

لكن بقيت من الملحدين في بعض ديار المسلمين بقية لم تعتبر بما جرى على دولة الإلحاد، ولم تستفق بعدُ من غيها وضلالها، فظلت على ما هي عليه من فساد في العقيدة وضلال في الفكر والتصور، ولم تكتفِ بذلك بل عمدت إلى إنشاء أو تقوية أحزاب مؤسسة على هذا الضلال البعيد، والعياذ بالله تعالى، من اشتراكية وماركسية ويسارية إلى آخر هذا النتن العقدي والفكري، وصار ديدن تلك الأحزاب الوقوف أمام المد الإسلامي الجارف في دول ثلاث تحررت من الطغيان والفساد في هذا الزمان إلى حد بعيد وهي مصر وتونس وليبيا[1]، ولزموا مناكفة الإسلاميين، والتحريض ضدهم، وإلقاء الشبهات على عملهم

(١) كانت كتابة هذه الأسطر قبل الانقلاب العسكري في مصر، وقبل المؤامرات عليها هي وتونس وليبيا.

وجهدهم، لكن زوال أولئك أمر كائن عما قريب - بإذن الله تعالى - ولكل أجل كتاب، وإن غدًا لناظره قريب.

وقد سلكت في طلب العلوم الطبيعية ما سلكه الملايين من الطلاب، وهو الدراسة النظامية في المدارس الحكومية، وقد كنت من الطلاب المتميزين - بفضل الله تعالى - طوال مراحل الدراسة في جميع العلوم، وعلى رأسها الرياضيات بأنواعها، والكيمياء والفيزياء والأحياء، على أني لا أذكر أني أحببت تلك العلوم قط، ولم أرغب فيها يومًا من الدهر، وإنما ساقني إلى دراستها الجبر الذي يجبر به الطلاب على دراسة تلك العلوم إلى نهاية الصف الأول ثانوي، ثم لما ملكت أمري في الاختيار بين إكمال الدراسة على هذا النحو أو التحول إلى القسم الأدبي رجعت إلى الجبر الأول وعدم الاختيار ؛ وذلك لأني أريد دراسة الطيران، وقد بيّتُ العزم على ذلك منذ زمن بعيد، ولم أخطط لشيء من الدراسة آخر، ولم يستهوني يومًا من الدهر أي تخصص مغاير لعلوم الطيران، فكنت كالمسوق في ذلك سوقًا، ولابد لمن يريد الانتظام في سلك الطيران من أن يواصل الدراسة في العلوم الطبيعية، لا خيار له في هذا.

وأذكر أن مَن كان يدرسنا تلك العلوم هم من الأساتذة المصريين، إلا في المدة التي حصل فيها الهجر بين الملك فيصل والعبد الخاسر «عبد الناصر»، فقد كانت الأساتذة تأتينا من سوريا وفلسطين والعراق والأردن والسودان، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك ممن يحسن ربط العلوم الطبيعية بخالقها، فلم أسمع يومًا ما من واحد منهم أن هذه الطبيعة قد خلقها الخالق - سبحانه وتعالى- وأنه سخرها لنا لنعمر الأرض على وفق السنن التي وضعها، جل جلاله، وأنه سيرث ذلك كله يوم القيامة، لم يكن هذا منهجًا لأي أستاذ ممن تولى تعليمنا، وليس في

ذلك غرابة؛ فقد كنا في معظم سني الدراسة نعيش في زمن ما قبل الصحوة الإسلامية التي وصلت إلى بلادنا سنة ١٣٩٦-١٣٩٧/ ١٩٧٦-١٩٧٧ تقريبًا، وما قبل الصحوة كان أكثر الناس في عماية عن الهدى والرشاد، ومن عاش المدتين -مدة ما قبل الصحوة وما بعدها- عرف الفرق وأدرك ما نحن فيه اليوم من نعمة جليلة[1].

ولتقويم طريقة تدريس تلك المواد فإني أذكر الآتي:

أولاً: الانفصام بين العلم والدين:

قد كانت المواد العلمية تُدَرَّس منفصلةً عن التوجيه الديني، وقد ذكرت هذا آنفًا، والعجيب أن هنالك دعوات اليوم تدعو إلى استمرار هذا الفصل، وأن المدرس لا ينبغي أن يوجه الطلاب دينيًا في حصص المواد العلمية، وأن في هذا إضعافًا للمنهج وتضييقًا لوقته!!

وهذا خطأ ظاهر؛ إذ ليس المطلوب هو الإكثار من إيراد الإشارات الدينية إنما هي إيماءات قليلات، وإشارات معبرات يمكن ألا تتجاوز دقيقتين أو ثلاثًا فقط في كل حصة، لكن سيكون أثرها عظيمًا في غرس الإيمان في نفوس الطلاب وعقولهم، ولا إخال المطالبين بعدم التوجيه الديني في الفصول إلا من الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون؛ فغفلوا عن أمر عظيم، وفاهوا بشيء سقيم.

ثانيًا: أكثر المواد الدراسية لا ينفع الطلاب إلا قليلاً في مسيرتهم بعد الثانوية:

لم يكن فيما درسته من مواد علمية طبيعية مساعدًا لي في دراستي التقنية

---

(١) قد كتبت كتابًا في شأن الصحوة الإسلامية وسميته: «الصحوة: تاريخًا وتقويمًا» وسينشر عما قريب، إن شاء الله تعالى.

فيما بعد الثانوية إلا قليلاً، ولو أني اخترت دراسة الطب - مثلاً - فلم يكن الجبر ولا حساب المثلثات ولا الهندسة التحليلية والفراغية بمفيد لي، ولو أني اخترت دراسة الهندسة مثلاً لم يكن الأحياء بنافع لي، وهكذا. . .

ولهذا كان من المفيد أن يدرس الطلاب في مسارات علمية بحسب رغباتهم؛ فمن أراد دراسة الطب يُدرّس له المواد المفيدة في تخصصه المستقبلي، ويُعطى الحد الأدنى اللازم الاطلاع عليه وفهمه من سائر العلوم، وهكذا الأمر في مريد دراسة الهندسة، ويبقى مسار ثالث يشترك فيه الطلاب من الأقسام العلمية الذي لا يرغبون في الطب ولا الهندسة، وإنما ذكرت الطب والهندسة فقط لأنهما المساران الأهمان في دنيا التقنية والعلوم، هذا ما أقترحه ويمكن أن يُعدّل هذا المقترح ليكون أقرب إلى الواقع، والله أعلم.

ثالثًا: عدم فهم المادة العلمية على وجهها:

أكثر الطلاب كانوا يعانون من صعوبات في فهم تلك المواد، وكثير منهم كان يرسب في الاختبارات، فنسبة النجاح في دفعتي في الثانوية العامة سنة ١٣٩٩/ ١٩٧٩ كانت ٤٢٪ فقط، وأكثر الراسبين إنما أخفقوا في تجاوز المواد العلمية، ولا أرجع ذلك إلى غباء في كل الطلاب الراسبين؛ وذلك لأن كثيراً منهم كان لا ينقصه الذكاء وحسن الفهم، إنما التبعة في هذا - والله تعالى أعلم - على طريقة تدريس المادة وعلى المدرس، وعلى ملاءمة المادة للطلاب، وهناك سبب رئيس آخر وهو انصراف الطلاب عن المراجعة والاستذكار.

وفي هذا التقويم كفاية؛ لأني لا أريد أن أتقدم بين يدي أساتذة متخصصين في نقد المناهج قد أفنوا أعمارهم في هذا وهم أحق وأعلم، لكن إنما أُقوم شيئًا

وقفت عليه ودرسته، وعرفت طرائق الطلاب المختلفة في دراسة المادة وتجاوز اختباراتها، والله تعالى أعلم.

- دراسة اللغة الإنجليزية:

أما اللغة الإنجليزية فقد كنت أحبها وأنتظر حلول حصتها لأستمتع بها، ومما ساعدني على حبها أن مدرسة الثغر النموذجية في جدة - وهي مدرستي طوال ثنتي عشرة سنة- كانت قد جلبت أستاذاً إنجليزياً للمرحلة الثانوية اسمه «كنْت»، وكان هذا الأستاذ بمعزل عن أكثر الطلاب سوى قلة كنت واحداً منهم، وكَان يشجعني على الحديث، وكنت أتحدث معه في أوقات الدرس وخارجه، وكنت أرى أكثر الطلاب وهم لا يكادون يفهمون ما يقوله الأستاذ، ولا يتابعونه على درسه.

لكن الحق أن هنالك عُواراً يشوب دراسة اللغة الإنجليزية؛ فالطلاب يدرسون اللغة الإنجليزية ست سنوات في المدارس الحكومية، وأربع عشرة سنة في المدارس الخاصة بإضافة سنتي الروضة والتمهيدي[1]!! ثم إن أكثر الطلاب إذا تخرجوا في الثانوية لا يستطيعون الحديث بما تعلموه في تلك السنوات الطوال ولا ببعض ما تعلموه!! وهذا لأن المنهج النظري لا يقارنه منهج عملي بحيث يُختبر الطالب في مدى قدرته على النطق والحديث باللغة الإنجليزية، وهذا كان

(١) أعد تدريس الطلاب اللغة الإنجليزية في أقسام الروضة والتمهيدي وسنوات الابتدائية من الجرائم والجرائر؛ وذلك لأن الطفل لم يُحكم لغته بعد فكيف يدرس لغة أجنبية؟ وقد علمت أن أكثر البلاد المتقدمة حضارياً يمنعون تدريس الطفل لغة أجنبية قبل إحكامه لغته. والعجيب أني كنت أناقش هذه المسألة مع بعض الصالحين القائمين على المدارس الخاصة، فإذا به مقتنع بخطورة تدريس لغة أجنبية للأطفال الصغار، لكنه اعتذر عن تدريسه إياها في مدرسته بأن الناس إذا علموا أن المدرسة الخاصة لا تدرس الأطفال لغة أجنبية فإنهم لا يقبلون عليها!! فالمسألة تجارية إذن وليست قناعة بتعليم اللغة في تلك المرحلة المبكرة.

حال أكثر الطلاب آنذاك، ولا أدري عن حالهم اليوم شيئًا وإن كنت أظن أن الأمر باقٍ على ما كان عليه، والله المستعان.

وقد كتبت قديمًا ما أراه من خلل في تعلم اللغة الإنجليزية في المدارس، فكان مما قلته:

الناظر في تعلم اللغات في العالم الإسلامي اليوم يجد عجبًا، وذلك أن الطالب يظل سنوات طويلة يتعلم اللغات المختلفة - خاصة الإنجليزية - ثم إنه يتخرج في المدارس الثانوية لا يكاد يعرف كيف يتكلم بما ظل يتعلمه كل تلك السنوات!! وإنما كان ذلك كذلك بسبب ضعف طريقة التدريس وعدم العناية بالتدريب على المخاطبة.

وهذا زيد -رضي الله عنه- يتعلم عدة لغات في مدة يسيرة، فقد قال:

«أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت كتاب يهود، وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فتعلمته، فلم يمر بي نصف شهر حتى حَذَقْته، فكنت أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذا كُتِب إليه»[1].

وروي أنه تعلم الفارسية والسُّريانية[2].

وإذا علمنا أنه تعلم السريانية في ١٧ يومًا زاد عجبنا وطال استغرابنا، ولم يتعلمها - رضي الله عنه - تعلمًا أوليًا ابتدائيًا بل تعلمها تعليمًا مكنه من مخاطبة الملوك وقراءة مخاطباتهم، وهذا منه عجيب، رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ورواه البخاري معلقًا.

(٢) حديث تعلم اللغة السريانية رواه أحمد في المسند: ٥/ ١٨٢.

وأما تعلم الفارسية فقد ورد ما يفيده في تاريخ الطبري.

ولعل من أكبر الأسباب المؤدية إلى التهاون في تعلم اللغات هو عدم معرفة الطلبة بأهمية هذا التعلم، وبما تؤول إليه نتيجته من إحسان مخاطبة الأمم، وتعلم كيدها ومكرها، ومعرفة الخطوات الحضارية التي خَطتها، ومحاولة الاقتباس الصحيح لتلك الخطوات المفيدة والمراحل التي قطعتها تلك الأمم بنجاح للوصول إلى ما وصلت إليه، ولو أن المعلمين والمعلمات قاموا ببيان تلك الأهمية للطلاب والطالبات لجنينا ثمرات ذلك الجهد المبذول الضخم لتعلم اللغات الأجنبية، ألا ترون معاشر الناس أن الطالب منا إذا أراد تحسين لغته يلجأ إلى المعاهد الخاصة ليحسّن لغته ويرتفع بها، إذًا ما الفائدة من بقائه ست سنوات في المدارس الحكومية وأربع عشرة سنة في المدارس الخاصة !! وهو يتعلم اللغة الإنجليزية مثلاً ثم إنه لا يكاد يستطيع النطق بها أو فهم ما يقرأه منها، إن هذا عجيب، وخلل تعليمي ضخم ينبغي النظر فيه وتلافيه فيما يستقبل من الأيام، والله أعلم.

ثم إن الأهم من ذلك كله أن إحسان تعلم اللغة الإنجليزية يمكننا من دعوة مئات الملايين من البشر على وجه حسن، وهذا أمر مهم، وهو عبادة نتقرب بها إلى الله تعالى.

وتعلم اللغة -أيضًا- يساعدنا في معركتنا الإعلامية مع قوى الشر العالمية التي تحاربنا إعلاميًا بكل طريقة ممكنة، فإذا أتقن طوائف منا اللغة كانوا قادرين على مقارعة أولئك، والرد على ما يرموننا به بحجج علمية يسمعها أولئك بلسانهم، وهذا أقوى تأثيرًا.

- **دراسة اللغات الأجنبية:**

قد بينت آنفًا شيئًا من مسار تعلم اللغة الإنجليزية، وأستطيع الحديث بالإنجليزية وفهمها والكتابة بها، كل ذلك على وجه متوسط، وقد حاضرت بها

مراراً، لكني لا أحب ذلك لأني لست بليغًا في تلك اللغة وأظل أفكر فيما سأقوله وأترجمه في ذهني قبل أن أقوله.

أما اللغات الأخرى - غير الإنجليزية- فقد درست الفرنسية لسبع حصص فقط على أستاذ شامي متقن، وكانت دراسة خاصة، لكني بعد أن قطعت شوطًا أدركت أن أحوالي وشؤوني لا تساعدني على المضي في الدراسة، وأنها تتعارض مع سائر ما ينبغي أن أقوم به في حياتي قبل لقاء الله تعالى، فانقطعت عنها، ولربما صدني عن الإكمال ما أجده في نفسي من بغض شديد للحكومات الفرنسية المتعاقبة عبر التاريخ الأوسط والحديث؛ لما صنعته من فظائع في الحروب الصليبية - فقد كان جل الجيوش الصليبية من فرنسا- وللفظائع التي فعلها الفرنسيون في البلاد العربية والإسلامية في العصر الحديث، ولطبيعة الشعب الفرنسي التي يغلب عليها الكبر والعُنجهية والفظاظة في التعامل مع الأجنبي.

ودرست اللغة الروسية قليلاً حتى استطعت الحديث اليسير بها، لكني لم أستسغ طرائق كتابتها فأعرضت عن تعلم حروفها بعد أن شرعت فيه.

دراسة الطيران:

تخرجت في القسم العلمي في شعبان سنة ١٣٩٩/ ١٩٧٩، ثم يممت وجهي شطر معهد الطيران، على كثرة الفرص التي سنحت لي آنذاك، فمجموعي في الثانوية العامة كان قرابة ٩٢٪، وكان هذا المجموع - آنذاك - يسهل لي دخول أي كلية أريد، وكذلك سنحت لي فرصة الابتعاث لدراسة الهندسة بشفاعة الدكتورة فاطمة نصيف الداعية المشهورة في مدينة جدة - حفظها الله تعالى - لكن كل ذلك لم يلقَ قبولاً عندي ولا صدًى في نفسي؛ وذلك أني أزمعت منذ

المرحلة الابتدائية على الالتحاق بمعهد الطيران، ولم أُمَنِّ النفس بغير ذلك، وعزمت على ذلك عزمًا يتضاءل أمامه أي رغبة في دراسة أي شيء آخر.

وأذكر أني نُصحت بعد التقديم في الطيران وقبل ظهور النتائج أن أُسجل في أي كلية لضمان الدراسة إذا لم أُقبل في الطيران، فسجلت في كلية العلوم، ودرست بضعة أسابيع فيها، فلا أذكر أني عانيت من دراسة قط ما عانيت من الدراسة في تلك الأسابيع، ولم أملّ منها قط مللي في تلك الأسابيع، فلما ظهرت النتيجة بالقبول سارعت فرحًا بالخروج من الكلية غير آسف عليها حتى أني لم أسحب ملفي، ولم أفعل أي شيء يشعر إدارة شؤون الطلاب بعدم رغبتي في المواصلة، وهذا يدل بوضوح على أن الطالب إذا لم يحب المادة التي يدرسها، والتخصص الذي وجد نفسه مرتبطًا به على غير رغبة منه فإن الدراسة تكون عليه ثقيلة، ومملة ولا جدوى منها، والله أعلم.

وقد كان عدد المتقدمين في أيامي خمسة آلاف قُبل منهم ستون، ووضع للمتقدمين اختبار تحريري فيه أربعة أقسام: قسم للذكاء، وقسم للغة الإنجليزية، وقسم للفيزياء والآلات، ونسيت القسم الرابع إلا أن يكون ما يسمونه «التحليل». ثم بعد الفراغ من الاختبار التحريري تقدمت للمقابلة الشخصية، وأذكر أن المختبرين سألوني عن عدد المحركات في طائرة ال ٧٠٧، فقلت لهم: لا أدري لكن في جناحها نتوءات بارزة عديدة، فضحكوا وأخبروني باسمها ووظيفتها وأنها ليست محركات.

ثم سألني واحد منهم: كيف ستكون علاقتك بالمضيفات؟ ولا أدري لم سألني هذا السؤال فلم يكن في لحيتي شعر إلا القليل جدًا مما لا يذكر، ولربما كان لطريقة لبسي مدخل في هذا، فأجبته بأنهن زميلات في العمل، وربما أراد

الله - تعالى - مني أن أُجيب بهذه الإجابة ليقضي أمرًا كان مفعولاً، وتكلم معي واحد من المختبرين باللغة الإنجليزية.

ثم بقيت بضعة أيام إلى أن خرجت النتائج وكنت من المقبولين، فأحالوني إلى الكشف الطبي، وأذكر أن الممرضة طلبت مني أن أضع عيني على فتحتين يرى منهما المرء ما يريد الطبيب اختبار عينيه به، وكانت عدة اختبارات منها اختبار الحول، وليس بي حَوَل -ولله الحمد- لكن الآلة لم توافق على هذا !! وأُخذت إلى طبيب أمريكي فأجرى لي اختبارًا بقلم كان معه، وطلب مني أن أُتبعه بصري ففعلت فعلّم على ورقتي بالنجاح.

ومن اللطائف أن إعادة اختبار الحول كانت في اليوم التالي، فلما ذهبت إلى البيت وعلم الوالد -رحمه الله تعالى- بما جرى سارع بشراء جزر كثير وطلب من الوالدة عصره لأشربه حتى أنجح في اجتياز الاختبار، وكان يحثني على الشرب بقوله: اشرب فإن الجزر يقوي النظر !! والجزر لا علاقة له بالحول، لكن الوالد - رحمه الله تعالى - كان بالغ الحرص على أن أُقبل في معهد الطيران.

ثم ضُرب لي موعد لبدء الدراسة، وكان ذلك في ١/ ١/ ١٤٠٠، ولعل القراء يذكرون أن هذا التاريخ قد وقع فيه الحدث الجلل في مكة المكرمة بدخول جُهيمان العتيبي وصحبه حرم الله الآمن وإلحادهم فيه، ولما ذهبت إلى المعهد في صباح ذلك اليوم لم أكن قد علمت بما جرى، وإذا بأستاذ أردنيّ يسيء إلى المتدينين والصالحين، ويصفهم بالتشدد والتعنت والتطرف بسبب ما جرى في الحرم، فلم أملك إلا أن رددت عليه، فأسرّها في نفسه، وعزم على عقابي حين تحين الفرصة، وفعلاً حانت له هذه الفرصة يوم قرر القائمون على المعهد أن

يُصَعِّدوا بعض الطلاب المتقنين للغة الإنجليزية من السنة الأولى إلى السنة الثانية، والدراسة في المعهد سنتان: سنة للغة الإنجليزية، وسنة لدراسة قوانين الطيران وبعض علومه، ثم يُبتعث الطالب إلى الولايات المتحدة، وعقدوا لنا اختباراً نُبئت فيما بعد أني كنت من المختارين عقبه للانتقال مباشرة إلى السنة الثانية لكن الأستاذ الأردني وقف لي بالمرصاد، ورفض أن أنتقل إلى السنة التالية، فبقيت في السنة الأولى، والحمد لله على كل حال، وقد تبين لي فيما بعد أن هذا الذي جرى عليّ كان خيراً لي؛ وذلك لأني لو صُعِّدت مع الطلاب الذين صُعِّدوا - وكان عددهم قرابة ثمانية - لعُددت غريبًا في الدفعة التي سألحق بها، وربما كان تأثيري الدعوي في الطلاب ضعيفًا، بينما كان البقاء في دفعتي والصعود معهم إلى السنة الثانية أمكن لي عند الطلاب في دعوتهم ومحاولة هدايتهم، وأحسن في تعميق الصلة بهم، وهذا هو الذي جرى؛ فقد حصل خير كثير من وراء هذا التأخير، ورب محنة في ثناياها منحة، ورب ضارة نافعة، والحمد لله رب العالمين.

وفي السنة الأولى درست اللغة الإنجليزية، لكني لما كنت متميزاً في طلبها في سني الدراسة المتوسطة والثانوية فإني لم أجد عناء يذكر في دراستها، وكنت الأول على الدفعة، ولله الحمد والمنة.

وفي السنة التالية درست قانون الطيران، وأذكر أني مللت من تلك الدراسة وضجرت منها إلى الغاية القصوى من الملل والضجر، لكن ما باليد حيلة؛ إذ لم يكن هناك بد من دراستها، والقوانين بطريقة صياغتها الجافة والحادة مملة ومضجرة، ومن ها هنا عقد بعض العلماء المقارنة بين طريقة صياغة البشر للقانون وبين ما ورد في كتاب الله - تعالى - من أوامر ونواه سيقت كلها بطريقة

رائعة، بدأ أغلبها بنداء الإيمان الخالد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وختمت أغلبها بتعليلات وتقريبات وتسهيلات، نحو: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك مهما قرأ المرء في كتاب الله - تعالى - من أوامر ونواه فإنه لا يمل ولا يضجر.

ولما فرغت من تلك السنة سافرت إلى روما من أجل الاختبار النظري في قوانين الطيران، فمكثت فيها قرابة عشرة أيام لأختبر لمدة ساعتين !! وكان ذلك الاختبار في السفارة الأمريكية في روما.

ومن ذكرياتي في روما أني كنت في عَشَرة من الطلاب، وكانوا كلهم ما عدا اثنين من غير الملتزمين، فاخترت أحدهما - وهو الآن كابتن ومفتش في الطيران الأخ في الله تعالى بدر العليان - واتفقت معه على أن نكون معًا في غرفة واحدة؛ وذلك لأن كل طالبين عُين لهما غرفة واحدة، فوافق جزاه الله تعالى خيراً، ومنذ ذلك الوقت كنا في غرفة واحدة حتى عدنا من أمريكا، وأذكر أنا ذهبنا إلى مدينة في الجبال تُدعى بومبي، وسلكت بنا الحافلة طريقًا ضيقًا ذا منعرجات خطيرة، وكان السائق أرعن متهوراً على طريقة كثير من السائقين في إيطاليا، فلما وصلنا إلى البلدة فإذا بها قد أحرقها بركان قديم ثار بالقرب من أهل البلدة ليلاً وهم نيام فأحرقهم جميعًا، ولما دخلنا إلى بيوت البلدة عرفت سبب ما جرى عليهم، فقد كانوا يعملون عمل قوم لوط، ويصورون ذلك على جدران غرف بيوتهم من الداخل ويفتخرون به ويعلنونه، فأرسل الله - تعالى - عليهم حمم ذلك البركان وهم نائمون فأصبحوا وهم عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، فلا إله إلا الله كيف يصنع بأعدائه وينتقم منهم سبحانه.

ومما أدهشني في روما - وكان السفر إلى إيطاليا أول خروج أخرج به من بلادي إلى ديار الغرب - أن الصلاة قد حانت وأنا وبعض الطلبة في أحد شوارع المدينة، فكان لا بد من الصلاة فقد حان وقت العصر وكنت قد نويت جمع العصر جمع تأخير مع الظهر، فقلت للطلاب: نصلي على رصيف الشارع فاستحيوا !! فدخلنا حديقة واسعة فما راعني فيها إلا أني رأيت تحت كل شجرة في الحديقة - تقريبًا - ذكرًا وأنثى من البشر !! وهما يتسافدان في وضع مُزر داخل الفراش المعد المنوم في الرحلات، وهنا يحسن إيراد قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤] نسأل الله تعالى العافية.

ثم لما عدت إلى البلاد ابتعثت إلى الولايات المتحدة لمواصلة الدراسة في علوم الطيران المتخصصة، ولا أجد شيئًا يستحق الذكر في هذا المقام زيادة على ما ذكرته، وهناك قضايا أخرى متصلة بالدعوة لها مقام آخر غير هذا، والله المستعان[١].

●●●

(١) أودعت كل ذكرياتي في سلك الطيران في كتابي: «مذكرات طيار»، وإنما كان هذا مثالاً صالحًا لختم هذا البحث: دراسة العلوم الطبيعية.

المبحث الثاني:

طلب العلم الشرعي

- المطلب الأول: طلب العلم في المدارس.
- دراسة التاريخ.
- المطلب الثاني: طلب العلم خارج المدرسة.
- حفظ كتاب الله تعالى.
- الإجازة في قراءة القرآن العظيم.

أذكر في هذا المبحث طالبي العلمَ الشرعيَّ وما يقتضيه من علوم الآلة، فأقول مستعينًا بالله -تعالى- متوكلاً عليه:

المطلب الأول: طالب العلم الشرعي في المدارس:

المنهج الشرعي واللغوي في المملكة هو أقوى المناهج التي تُدرّس في العالم الإسلامي، وذلك أن المناهج غيرت وعدلت بقرار من الملك فيصل -رحمه الله تعالى- أواخر الثمانينيات الهجرية/ الستينيات الميلادية، وقد اجتمع على تغييرها مشايخ وعلماء ودعاة من السعوديين وغيرهم، وكان قرار تغيير المناهج قرارًا تاريخيًا جليلاً؛ إذ لم تكن المناهج قبل تغييرها لائقة ببلاد مهبط الوحي، بل كتبها القوميون العرب الذين كانوا مسيطرين على كتابة المناهج الدراسية آنذاك، فأصبحت المناهج بعد تعديلها وتغيير أجزاء منها جيدة إلى حد كبير، ولهذا حديث آخر[1].

وركنا العملية التعليمية هما المنهج والمدرس، أما المنهج فقد كان في زماننا مقبولاً إلى حد كبير، وأما المدرسون فللأسف كانوا بعيدين كل البعد -في الجملة- عما ينبغي أن يكون عليه المدرس القدوة.

وقد كان لنا مدرسون يدرسوننا العلوم الشرعية وبعض علوم الآلة في المراحل الدراسية الثلاث: الابتدائية والمتوسطة «الإعدادية» والثانوية، وكانوا من خارج المملكة، في أكثريتهم الكاثرة، لكني لا أذكر أن واحدًا منهم ترك في نفسي ذكرى حسنة أو تكلم بكلام حسن أثر في قلبي وعقلي، ولا غرابة -

(١) تحدثت في تغيير المناهج في كتابي: «الصحوة: تاريخًا وتقويمًا».

عندي- في هذا؛ فإنهم كانوا موظفين ولم يكونوا دعاة، ولا مرشدين، وقد كنا في زمن ما قبل الصحوة أشبه بالأموات منا بالأحياء، حتى منّ الله -تعالى- علينا بصحوة كان لها أعظم الأثر في رقي المجتمع دينًا ووعيًا وفهمًا.

وكنا ندرس العلوم الشرعية دراسة تقرب من التعمق والشمول، لكن كان ينقصنا المدرس الذي يحول المنهج الشرعي النظري إلى منهج عملي في كثير من جوانبه، ويحبب إلينا المادة، ويربطها بحياتنا اليومية، لكن أنى لمدرسينا الذين درسونا المواد الشرعية آنذاك أن يكونوا كذلك وليسوا قدوات صالحة لنا؟ وهم أنفسهم لم يدرسوا في سنوات طلبهم العلم على هذا الوجه المطلوب المرغوب، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وأذكر أن أسئلة بعض اختبارات المواد الشرعية في سنوات الثانوية كانت بيد الطلاب يتدارسونها قبل دخولهم قاعة الاختبار!!

وأذكر أن أستاذ المواد الشرعية في المرحلة الثانوية كان في الفصل يتحدث مع مجموعة من الطلاب، ومجموعة أخرى كانت تخرج من النافذة إلى ساحة المدرسة لتشتري ما تريد من المقصف «مكان بيع الطعام»، ثم تعود إلى الفصل بلا أي نكير من المدرس!!

ومما يجلب الأسى أن مدرسي العلوم الشرعية- في الأغلب -كانوا أقل المدرسين مهابة ومكانة في نفوس الطلاب، ومدرسي المواد الطبيعية كانوا أصحاب مكانة ومهابة ويعاملون الطلاب بصرامة في كثير من الأحيان.

هذا وإن إسقاط منزلة مدرسي المواد الشرعية لهي خطة قديمة سار عليها المحتل الأجنبي في بلاد الإسلام ليهدم مكانة العلم الشرعي في نفوس الطلاب، فعمد

إلى مدرسي الشريعة واللغة العربية فرتب لهم من الأجر ثلث ما يقبض مدرس العلوم الطبيعية واللغة الإنجليزية، وكان المحتل الأجنبي يختار الطلاب الضعاف في الكليات الشرعية واللغوية والطلاب الأقوياء في غير ذلك من الكليات، وإن شئت الدقة فقل إن الطلاب النابهين كانوا يلتحقون بالكليات العلمية وغيرهم من الضعاف كان مصيرهم إلى الكليات الشرعية واللغوية وأمثالها؛ لقلة أجر المتخرج فيها وعلو أجر المتخرج في الكليات العلمية، وإنما خطط لهذا لهدم مكانة الدين واللغة في نفوس الناشئة، وقد بدأت هذه الخطة في مصر على يد المعتمد البريطاني -المندوب السامي البريطاني فيما بعد- اللورد كرومر لما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، وذلك على يد قس يدعى دنلوب عينه كرومر مستشاراً في وزارة المعارف فكان بيده الأمر والنهي، وكان بيده التخطيط للتعليم في مصر!!

ثم سرت العدوى إلى أكثر البلاد العربية والإسلامية، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والحاصل أننا درسنا المواد الشرعية دراسة خالية من الربط بواقع الحياة، وهذا أدى بأكثر الطلاب إلى أن يكونوا في الجملة بعيدين عن الدين، قليلي الصلاة، غير مكترثين - في الجملة - بالحلال والحرام، ولن تستفيد الناشئة إلا بمدرسين يقرنون بين العلم والعمل، ويعظّمون الشريعة في نفوس الطلاب، بل يعظمون الله - تعالى وجل وعز- في نفوس الطلاب، ويحببون إليهم نبيهم الأعظم.

وأذكر أن دفعة الطلاب في الثانوية العامة في مدرستي سنة ١٣٩٩/ ١٩٧٩ كان عدد الطلاب الملتزمين بدينهم فيها ربما أقل من عدد أصابع اليدين، وكان عدد الطلاب قرابة مائة وسبعين طالبًا!! وكان هذا بسبب الخلل الكبير في تدريس المواد الشرعية، والضعف الكبير في البناء المنهجي في المدرسين،

وبعدهم هم أنفسهم عما يدرسونه الطلاب !! فهم ليسوا قدوات فكيف سينصلح شأن الطلاب إذن؟

أما ما درسناه من علوم الآلة فكان على رأسها النحو، ودرسنا النقد والبلاغة، وكان الطلاب من شدة انصرافهم عنها واستيائهم منها يسمونها «النكد والبلاهة» !!

ودرسنا شيئًا من الصرف أيضًا، لكن كانت الدراسة لمواد اللغة العربية بمعزل عن تذليل اللسان باللغة، فقد كان الطلبة -في الجملة- يأتون بعلامات لا بأس بها، لكنهم لا يستطيعون - عقب تخرجهم ودراستهم اللغة العربية منذ الصف الرابع الابتدائي إلى الصف الثالث الثانوي - قراءة سطر واحد صحيح خال من اللحن!! وليس ذلك ذنب الطلاب إنما التبعة في هذا على طريقة التدريس التي يعمد فيها المدرس إلى التفصيل في القواعد والإعراض عن التدريب على العمل بها، فينشأ الطالب على حفظ علامات الاسم والفعل والحرف، وشروط جمع المذكر السالم، وشروط جمع المؤنث السالم، وقواعد البدل والصفة والعطف وغير ذلك؛ وهو قد يأتي في الاختبار بعلامات مرتفعة لكنه مع هذا لا يحسن القراءة، ولا يستطيع التعبير عما في نفسه بطريقة سليمة فصيحة، وهذا من العجز؛ إذ كيف يدرس الطالب علوم اللغة سنوات عديدة ثم لا يستفيد منها شيئًا في القراءة أو التعبير عما في النفس؟!

هذا والأساتذة كلهم -تقريبًا- لا تكاد الفصحى تعرف إلى ألسنتهم طريقًا، فإنهم يتكلمون بالعامية حتى أساتذة الشريعة واللغة، فكيف يستطيع الطالب بعد هذا كله أن يذلل لسانه بالفصحى ويحسن الكلام والتعبير عما في نفسه بها؟!!

وأفضل طريقة لتعلم العربية هي أن يُعلم الطالب قواعد اللغة النظرية على

وجه موجز جامع لأهم قواعد اللغة، ثم يُدرس الطالب كيفية القراءة الصحيحة القويمة بأن يقرأ الطالب والمدرس يسمعه ويصحح ما أخطأ فيه من قواعد لغوية علمه إياها من قبل، ويبقى كذلك إلى أن يذل لسانه باللغة قراءة وضبطًا.

وفي الأساليب العملية لتعليم اللغة العربية قال الأستاذ الأديب المصري المؤرخ محمد سعيد العريان المتوفى سنة ١٣٨٤ / ١٩٦٤ :

«ينبغي أن نعلّم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج من قاموسه الذي نعرفه كلمة؛ كلمة لأننا نحن الذين أملينا عليه كلمة كلمة هذه الأحاديث والقصص التي روينا له، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به اليوم؛ فإذا بلغنا به مبلغًا ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع، ونطق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به»[1].

دراسة التاريخ:

أما دراسة التاريخ في المدارس فحدث عن الملل والضجر ولا حرج، فقد كانت حصة التاريخ من أشق الحصص على الطلاب؛ وذلك لأن منهج المادة لا يوصل للطالب العبر والعظات ولا القصص المؤثرة أو الأحداث اللافتة للنظر،

(١) مجلة «الرسالة»: العدد ٢١٠ سنة ١٩٣٧.

ومدرسو المادة - على الأغلب - لا يحسنون غير الطريقة التي تلقوا المادة بها، وهذا كله جعل مادة التاريخ مكروهة مملولة، لا إبداع فيها ولا تجديد[1].

ولا أذكر أني استفدت من دراسة التاريخ أي فائدة طوال السنوات العديدة في المدرسة، ولم يستوقفني شيء مهم، ولا حدث جلل، ولم يوقفنا أستاذ التاريخ قط على فائدة من الفوائد إنما هو كرٌّ وسرد لا قيمة حقيقية له، ولا فائدة من ورائه، وحفظ مملول مكرور مضجور يملأ رؤوس الطلاب ثم يقذفونه إلى الأبد في أوراق إجابة الاختبار!!

وأنا أقول بعد هذا العرض الموجز لطرائق طلب العلم في المدارس: إنه ما لم يُبنَ المدرس بناء حسنًا يجمع فيه بين حسن التلقي للعلوم المختلفة وحسن عرضها وأن يكون في الوقت نفسه قدوة لطلابه، ما لم يكن أكثر المدرسين هكذا فإن دراسة الطلاب في المدارس ستكون مملوءة بالثغرات وجوانب النقص التي تعود على الطلاب بأسوأ العوائد، والله المستعان.

المطلب الثاني: طلب العلم خارج المدرسة:

في السنة الثالثة من القسم الثانوي مَنّ الله - تعالى - عليّ بالتبصر في شأني ومراجعة أحوالي، وهذا يسميه الناس في بلادنا «الالتزام»، ولهذا قصة سقتها في مكان آخر، وقد بدأت بطلب العلم بالقراءة المنفردة بدون توجيه، فقرأت عدداً من كتب ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية[2] وتلميذه الحافظ ابن القيم[3] -رحمة الله

---

(١) سيأتي الحديث في التاريخ ودراستي له في المبحث الثامن إن شاء الله تعالى.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، يُدعى لجدته تيميّة. أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي - رحمه الله - سنة ٧٢٨ بدمشق مسجونًا بعد أن خلف علمًا كثيرًا ومصنفات عديدة. انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤-١٧٠.

(٣) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة=

تعالى عليهما - وبقيت أعاني من صعوبات وعدم فهم لما أقرأه، خاصة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، إلى أن وفقني الله -سبحانه وتعالى- بعد بضعة أشهر من فراغي من الثانوية للقاء شيخي الدكتور محمد علي إبراهيم، حفظه الله تعالى ونفع به، فكنت أذهب إليه ليحل لي كثيراً مما استغلق عليّ فهمه، أو صعب عليّ تصوره، وكنت أذهب إليه على غير ترتيب في طلب العلم، ولا مراعاة لما يجب أن آخذه أولاً، وأذكر أني كنت أقرأ عليه كتاب أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف(1) - رحمه الله تعالى - فمرت مسألة فقهية فسألته عن معناها فقال لي: ألم تدرس الفقه؟ فقلت له: لا، فقال: كيف تقرأ الأصول وأنت لم تدرس الفقه؟!

وأذكر أني كنت آتيه بكلام يصعب على مثلي فهمه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- اقتطعته من سياقه لأسأله عنه، فكنا -أحياناً- نمضي وقتاً ليس بالقليل من أجل فهم مراد شيخ الإسلام، وكنت أقرأ آنذاك بعضاً من مجلدات الفتاوى السبع والثلاثين وآتي بالمعضل منها إلى الشيخ ليفسره لي، وكنت أقرأ كتباً أخرى وآتي بما لم أفهمه للشيخ.

= ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله تعالى. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١-٢٣.

(1) عبد الوهاب بن عبد الواحد خلاف. فقيه مصري، من العلماء. كان أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، ومفتشاً في المحاكم الشرعية، وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية. ولد بكفر الزيات، وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة سنة ١٩١٢، وكان أخطب الطلاب فيها. ودرّس بها سنة ١٩١٥ ثم انتقل إلى سلك القضاء. وفي سنة ١٩٣٥ عيّن مساعد أستاذ للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق، بجامعة القاهرة، ثم أستاذاً فيها إلى سنة ١٩٤٨، له تصانيف مطبوعة. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٧٥/ ١٩٥٦، انظر «الأعلام»: / ١٨٤٤.

والحاصل أن طريقة قراءة الكتب المطولة والعميقة على انفراد وحل معضلها على شيخ ما هي الطريقة التي سلكتها، لكن تلك الطريقة لم تكن لتناسب إلا من ملك مفاتيح العلم بدراسة نظامية منضبطة بداياتها ونهاياتها، أما أنا فلم تكن تناسبني تلك الطريقة آنذاك لكن هذا ما سلكته ودرجت عليه في أكثر قراءاتي على الشيخ آنذاك باستثناء كتاب واحد قرأته عليه كله وهو كتاب «أصول الفقه» للشيخ عبدالوهاب خلاف، رحمه الله تعالى.

ومن اللطائف التي تذكر ها هنا أني قد وقع بين يدي كتاب للحافظ السيوطي[1] عنوانه «تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه» أوّل فيها الحافظ - رحمه الله تعالى - جُل ما قال فيه السلف: أَمِرّوها كما جاءت، أي من الصفات الإلهية الواردة في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ فاستولت عليّ دهشة عظيمة؛ إذ كنت إلى ذلك الوقت لا أعرف عن التأويل في أمر الصفات شيئًا، فما كنت أقرأ في العقيدة إلا لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن القيم - رحمة الله تعالى عليهما - ولم يقرر لي شيخي شيئًا سوى عقيدة أهل الحديث، فذهبت إليه مسرعًا وذكرت له أمر الكتاب، فضحك - حفظه الله تعالى - وبين لي ما استغلق عليّ فهمه من صنيع الحافظ السيوطي بيانًا جيدًا فانحلت لي المسألة.

والحق أني لم أرتضِ مذهب التأويل يومًا من الدهر ولم تسكن إليه نفسي، وأرى أنه مذهب فيه شيء من الجرأة على نصوص الوحيين، لكني لا أذهب

(١) هو الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي المصري. كان عالمًا مجتهدًا، وجرى بينه وبين علماء عصره خلافات كثيرة بسبب دعواه الاجتهاد. توفي في القاهرة سنة ٩١١هـ رحمه الله تعالى. انظر: «شذرات الذهب» ٨/ ٥٥.

مذهب عدد من المشايخ في القول بخروجهم من أهل السنة والجماعة، وكيف أصير إلى هذا التقرير الذي قرروه وأكثر أئمة الإسلام في العصرين الوسيط والحديث هم من أهل التأويل، فمن يبقَى إذن من أهل السنة والجماعة إلا قليل؟ وهذا سأبينه بعد قليل، لكني أقول مؤكدًا إن أهل التأويل أخطئوا فيما ذهبوا إليه، وخطأهم هذا مبعثه إرادة التنزيه فلم يكن عن هوى ولا تحكم، فرحم الله تعالى الجميع، وغفر لهم.

هذا وقد استفدت من الشيخ استفادة كبيرة فيما كان يلقيه عليّ من مقدمات العلوم؛ إذ كان قد علمني مبادئ العقيدة السلفية على طريقة أهل الحديث، وعقائد أهل التأويل لكن بدون غلو ولا تعصب، ولا حيف على المؤولة، وإن كان قد ذكر لي بوضوح أن الصحيح من العقائد هو ما كان عليه أهل الحديث، الذين يثبتون الصفات ولا يؤولونها، ورغبني في ذلك حتى اقتنعت به تمام الاقتناع، وتقرر عندي أن عقيدة أهل الحديث في إثبات الصفات بدون تأويل هي الأسلم والأحكم والأولى بالصواب، لكن بدون تسفيه للأشاعرة ولا إخراج لهم من دائرة أهل السنة فهم جزء من أهل السنة الذين هم عندي: أهل الحديث وطريقتهم في التسليم في الصفات معلومة هم ومن جرى على مذهبهم وأشرف أن أكون معهم معتقدًا عقيدتهم، رضي الله عنهم، والأشاعرة، والماتريدية، كل أولئك من أهل السنة ولا يصح إخراجهم منها، فبعض المشايخ يُخرج الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة وهذا خطأ بين؛ إذ بهذا يُخرج الأكثرية الكاثرة من علماء الإسلام في القرون العشرة الأخيرة من أهل السنة وهذا حيف واضح، وكذلك كثير من علماء الأشاعرة والماتريدية يخرجون من يرى الإثبات في الصفات على

طريقة أهل الحديث من دائرة أهل السنة ويتهمونه بالتجسيم، وهذا خطأ وعبث، والصحيح - عندي - أن أهل السنة والجماعة هم أهل الحديث الذين جروا في أبواب الاعتقاد على ما كان عليه الصدر الأول من غير تبديل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل، فهم الأولى بالاتباع، ويندرج معهم الأشاعرة والماتريدية -على ما عندهم من أخطاء في جوانب من العقيدة- رحم الله الجميع وغفر لهم.

وبعض المشايخ جرى على طريقة رآها وسطى، وهي أن الأشاعرة والماتريدية هم من أهل السنة بالاعتبار العام إذا قوبل بينهم وبين أهل البدع الغليظة من الرافضة وأمثالهم، أما استقلالاً فلا، وهذا الذي ذهب إليه غير مرضي ولا دليل عليه، فالأولى أن يقال: إن أهل السنة والجماعة مظلة جليلة انضوى تحتها أهل الحديث والأشاعرة والماتريدية، على خطئهم وتجاوزهم في مسائل في العقيدة لا أقرها ولا أرتضيها، لكنها لا تبلغ أن تخرجهم تمامًا من دائرة أهل السنة والجماعة.

هذا ما رأيت أنه الحق، وأنه أقرب إلى قواعد الشريعة وضوابطها، وأنه إنصاف لنا ولهم، والله تعالى أعلم.

قال تاج الدين السبكي[1] في شرح عقيدة ابن الحاجب[2]:

---

(١) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، تاج الدين. ولد سنة ٧٢٧ وقرأ على جملة من المشايخ، وأمعن في طلب الحديث والاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب، وكان ذا بلاغة وطلاوة ومعرفة بالأمور. له مصنفات انتشرت في حياته ورزق فيها السعد. ولي عدة وظائف في بلاد الشام وانتهت إليه رياسة القضاء والإفتاء فيها، وحصلت له محن ثبت فيها وصفح عمن أساء إليه. توفي سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٩- ٤١.

(٢) الشيخ الإمام العلامة المقرئ الأصولي الفقيه النحوي جمال الأئمة والملة أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني الأصل الإسنائي المولد المالكي، صاحب التصانيف. ولد سنة =

«اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل، وإن اختلفوا في الطرق والمبادئ الموصلة لذلك . . . وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف:

الأولى: أهل الحديث، ومعتمد مبادئهم الأدلة السمعية، أعني الكتاب والسنة والإجماع.

الثانية: أهل النظر العقلي والصناعة الفكرية وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعري(١)، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدي(٢) . . .

الثالثة: أهل الوجدان والكشف، وهم الصوفية، ومبادئهم مبادئ أهل النظر والحديث في البداية والكشف والإلهام في النهاية»(٣).

وليس السياق الآن صالحًا لنقد تقريره في الصوفية، فقد بينت ذلك في مكان آخر.

= سبعين وخمسمائة بإسنا من بلاد الصعيد وكان من أذكياء العالم، رأسًا في العربية وعلم النظر. انتقل إلى القاهرة واجتهد في طلب العلم هنالك حتى برع فدرّس فيها، ودرس بجامع دمشق، وبالنورية المالكية، وتخرج به الأصحاب، وسارت بمصنفاته الركبان، وخالف النحاة في مسائل دقيقة، وأورد عليهم إشكالات مفحمة. انتقل إلى الإسكندرية، فلم تطل مدته هناك، وبها توفي في السادس والعشرين من شوال سنة ست وأربعين وستمائة «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٦٤.

(١) هو الشيخ الإمام العلامة، إمام المتكلمين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري اليماني البصري ولد سنة ٢٦٠، وكان عجبًا في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه بعد أن كان من المقدمين فيه. له تصانيف حسنة تقضي له بسعة العلم. مات ببغداد سنة ٣٢٤: انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٨٥- ٩٠.

(٢) محمد بن محمد بن محمد، أبو منصور الماتريدي: من أئمة علماء الكلام. نسبته إلى ماتريد (محلة بسمرقند)، له عدة مؤلفات. توفي ٣٣٣. انظر «الأعلام»: ٧/ ١٩.

(٣) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: ٢/ ٩.

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي[1].

فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث دون من يشتري لهو الحديث، وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم ومتكلمو أهل الحديث منهم كلهم متفقون على مقالة واحدة في توحيد الصانع وصفاته وعدله وحكمته. . . وليس بينهم فيما اختلفوا فيه منها تضليل ولا تفسيق، وهم الفرقة الناجية. . . فمن قال بهذه الجهة التي ذكرناها ولم يخلط إيمانه بها بشيء من بدع الخوارج والروافض والقدرية وسائر أهل الأهواء فهو من جملة الفرقة الناجية إن ختم الله له بها، وقد دخل في هذه الجملة جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي[2] والثوري[3] وأهل الظاهر. . .»[4].

فما أحسن هذا الكلام وما أعدله، وهو عين الإنصاف.

وهذا الإمام السلفي الجليل أبو عمرو الداني[5] رحمه الله تعالى يقول: «اعلموا أيدكم الله بتوفيقه، وأمدكم بعونه وتسديده أن قول أهل السنة والجماعة

(١) العلامة البارع، المتفنن الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، نزيل خراسان. صاحب تصانيف بديعة، وأحد أعلام الشافعية، كان يدرس في سبعة عشر فنًا، ويضرب به المثل. توفي بـ «إسفرايين» سنة ٤٢٩ بعد أن شاخ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٥٧٢- ٥٧٣.

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي، أبو عمرو، الفقيه. ثقة جليل. توفي سنة ١٥٧هـ رحمه الله تعالى. انظر «تقريب التهذيب»: ٣٤٧.

(٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، شيخ الإسلام، الإمام الحافظ سيد الورعين. توفي سنة ١٦١ رحمه الله تعالى. انظر «نزهة الفضلاء»: ٤٦٠.

(٤) «الفرق بين الفرق»: ١٩- ٢٠.

(٥) الشيخ الإمام، الحافظ، المقرئ، عالم الأندلس عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، ولد سنة ٣٧١، وأخذ عن علماء بلده ثم رحل إلى المشرق. كان مالكي المذهب، جيد الضبط، دينًا فاضلاً، مجاب الدعوة، بارعًا في القراءات والحديث والنحو والتفسير. مات سنة ٤٤٤ بـ (دانية) رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٧٧- ٨٣.

من المسلمين المتقدمين والمتأخرين من أصحاب الحديث والفقهاء والمتكلمين. . .»[1] فبين أن أهل السنة والجماعة يدخل فيهم أهل الحديث والمتكلمون، وما المتكلمون إلا الأشاعرة والماتريدية.

وقال الإمام العلامة السفاريني الحنبلي[2]:

«أهل السنة والجماعة ثلاث فرق:

الأثرية وإمامهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

والماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى»[3].

وكذلك قال العلامة ابن الشطي[4] في شرحه على العقيدة السفارينية: «تبصير القانع في الجمع بين شرحي ابن شطي وابن مانع على العقيدة السفارينية»: ٧٣.

وقال العلامة الكويتي الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان[5] كلامًا يحتمل في جوانب منه الحق والصواب، قاله معلقًا على قول السفاريني: «أهل السنة والجماعة هم ثلاث فرق: الأثرية والأشعرية والماتريدية:

---

(١) «الرسالة الوافية في معتقد أهل السنة والجماعة»: ١١٧.

(٢) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني النابلسي الحنبلي، أبو العون، شمس الدين، محدث وفقيه أصولي، مؤرخ، ولد بسفارين من قرى نابلس. توفي سنة ١١٨٨ رحمه الله تعالى.

(٣) «لوامع الأنوار البهية»: ١/ ٧٣.

(٤) هو حسن بن عمر بن معروف الشطي الحنبلي، فقيه فرضي، بغدادي الأصل، ولد في دمشق سنة ١٢٠٥، وتوفي بها سنة ١٢٧٤. انظر «الأعلام»: ٢/ ٢٠٩.

(٥) حنبلي سلفي أثري، ويرجع نسبه إلى قبيلة حرب، ولد في الكويت التي نزح إليها أبوه من المجمعة في نجد سنة ١٢٩٢، وتنقل الابن في المناصب فكان قاضيًا، ومعلمًا، وخطيبًا، توفي سنة ١٣٤٢/١٩٤١.

«الثلاث فرق هي فرقة واحدة لأنهم كلهم أهل الحديث؛ فإن الأشاعرة والماتريدية لم يردوا الأحاديث ولا أهملوها فإما فوضوها وإما أولوها، وكل منهم أهل حديث، وحينئذ فالثلاث فرقة واحدة لاقتفائهم الأخبار وانتحالهم الآثار، بخلاف باقي الفرق فإنهم حكموا العقول وخالفوا المنقول، فهم أهل بدعة وضلالة ومخالفة وجهالة، والله تعالى أعلم»[1].

وقال العلامة الحنبلي محمد بن علي بن سلوم[2] كلامًا مثل ذلك.

وقال العلامة المواهبي الحنبلي[3] مثل ذلك.

وقال عبد القاهر البغدادي رحمه الله تعالى:

«ولسنا نجد اليوم من فرق الأمة من هم على موافقة الصحابة -رضي الله عنهم- غير أهل السنة والجماعة من فقهاء الأمة ومتكلميهم الصفاتية دون الرافضة والقدرية والخوارج والجهمية والنجارية والمشبهة والغلاة والحلولية»[4].

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز، رحمه الله تعالى:

---

(١) «تبصير القانع»: ٧٣.

(٢) محمد بن علي بن سلوم التميمي النجدي الزبيري، عالم بالفرائض والهيئة، ولد في العطار -من قرى سدير بنجد- سنة ١١٦١، وانتقل إلى الأحساء ثم سكن سوق الشيوخ وتوفي فيها سنة ١٢٤٦، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٩٧.

(٣) هو عبد الباقي البعلي الأزهري الدمشقي، تقي الدين، فقيه حنبلي مقرئ، من العلماء، ولد في بعلبك سنة ١٠٠٥، رحل إلى مصر وتعلم في الأزهر، وعاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة ١٠٧١. انظر «الأعلام»: ٣/ ٢٧٢.

(٤) «العين والأثر»: ٥٣، نقلاً عن كتاب «أهل السنة الأشاعرة».

«الأشاعرة عندهم أشياء خالفوا فيها أهل السنة من تأويل بعض الصفات، فهم في باب التأويل ليسوا من أهل السنة؛ لأن أهل السنة لا يؤولون، وهذا غلط من الأشاعرة ومنكر، لكنهم من أهل السنة في المسائل الأخرى...»[1].

وبهذا التقرير كله والنقولات المتعددة يترسخ عندي القول بأن أهل السنة والجماعة هم أهل الحديث والأشاعرة والماتريدية، لكن لا يعني ذلك أن كل ما أتى به الأشاعرة والماتريدية من تأويل الصفات صحيح بل هو خطأ مردود عليهم، وخطؤهم ذلك لا يخرجهم من دائرة أهل السنة والجماعة، كما بينت آنفًا، والله تعالى أعلم.

كل ذلك وغيره كان يلقيه الشيخ عليّ أسابيع متتابعة مما أحكمه من حفظه وفهمه دون كتاب تارة وبكتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي[2] تارة أخرى، وأفهمني قدراً غير قليل من علم الأصول، وكذلك قرّر لي أسباب الخلاف بين العلماء تقريراً حسنًا، فجزاه الله عني خير الجزاء.

أستاذي الأول:

في سنة ١٤٠٠/ ١٩٧٩ كنت أدرس في معهد الطيران، وسمعت آنذاك بمحاضرات تُعقد في قاعة كلية العلوم- وكانت تسمى مسرحًا ولا أدري لماذا -في جامعة الملك عبد العزيز كل يوم ثلاثاء، فحضرت محاضرة منها فأعجبني

---

(١) موقع الشيخ عبد العزيز بن باز على الشبكة.

(٢) ابن أبي العز صدر الدين أبو الحسن علي بن علاء الدين علي الدمشقي الصالحي الحنفي. ولد في دمشق سنة ٧٣١ في كنف أسرة جميع أفرادها كانوا ينتحلون مذهب أبي حنيفة، ومعظمهم قد تولى القضاء في الشام، وهو أيضًا قد تولى قضاء الشام ومصر. توفي - رحمه الله تعالى - في دمشق سنة ٧٩٢، انظر «الأعلام»: ٤/ ٣١٣.

موضوعها وطريقتها، ورأيت أن لكل محاضرة إعلانًا، وهو ورقة كبيرة الحجم تنبئ بموضوع وتاريخ المحاضرة ومن هو الشيخ الذي سيحاضر، فعزمت على أخذ هذا الإعلان وتعليقه على باب معهد الطيران، فسألت الطلاب فدُللت على طالب سمح، لكنه كان مشغولاً على المنصة بالتوجيه والإشراف على طلاب آخرين يأمرهم وينهاهم، فاقتربت منه وطلبت منه الإعلان، فقال لي: وماذا تريد به؟

فقلت: أريد أن أعلقه على باب المعهد.

فقال: وأين هذا المعهد؟

فقلت: هو معهد الطيران، فكأنه سُرّ بهذا وأعجبه، وأعطاني الإعلان فطرت به سرورًا وعلقته على باب الكلية.

وقد سألني - لما أعطاني الإعلان - رقم هاتف المنزل فأعطيته إياه، فاتصل بي فيما بعد وتعهدني بالزيارة على أني كنت أسكن في منطقة الهنداوية، وكان يسكن في شارع فلسطين، وهو من علية القوم وقد كنت من ضعفائهم، لكن ذلك لم يمنعه من زيارتي، وأن يدعوني إلى زيارته في بيته، ولقد كان من السماحة والدماثة واللطف بمكان، وكان يعرف كيف يجلب القلوب إليه بسماحته ولطفه وحسن تعهده لمن معه، وهذه موهبة يهبها الله من يشاء من عباده.

وكنت أجد عنده جماعة من الشباب الصالحين فلربما أدركتنا الصلاة فيقدمني إمامًا ويصر على ذلك لأني كنت أكثرهم حفظًا، على أن بعض الشباب كان

ممتعضًا من إمامتي بسبب ضعفي في التجويد آنذاك، لكنه -جزاه الله خيرا- جرى على هذه الطريقة من تقديمي في الإمامة وعدم الالتفات إلى معارضة الآخرين إلى أن أتقنت التجويد بعد ذلك.

وقد كان الأخ جمال يطلب مني أحيانًا أن أقرأ عليه من تفسير الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- وما كان لي عهد من قبل بقراءة كتاب أمام أحد، وذلك قبل قراءتي على شيخي الدكتور محمد علي، فكنت أُمسك بالكتاب فأضعه أمام عيني بيني وبينه حتى يحول دون رؤيتي له، وذلك لفرط خجلي وعدم اعتيادي هذا الصنيع، فكان -حفظه الله- يوجهني فيقول: حاول أن تنظر إلي تارة وإلى الكتاب أخرى، وانظر أثر قراءتك في وجهي، وحاول أن تنزل الكتاب حتى أراك وأنت تقرأ، ثم ما زال بي هكذا حتى ذهبت مني هيبة قراءة الكتب أمام الناس، واعتدت على بعض الطرائق القويمة للقراءة بحضور آخرين، والفضل في ذلك كله بعد الله -تعالى- يعود إلى الأخ جمال الذي صار بهذا وبغيره معلمي الأول وأستاذي في القراءة، فجزاه الله تعالى خيرًا.

حفظي كتاب الله تعالى[1]:

ولما التزمت طريق الهداية والتوفيق في نهاية الثانوية -العامة- ولذلك قصة سقتها في مكان آخر- كنت ألازم مسجد الحي، وكان ممن يتردد على المسجد أخ لي في الله -تعالى- من أصول هندية، كنا قد درسنا معًا في مدارس الثغر

(١) قد كان جماعات من السلف والخلف يكرهون كلمة الحفظ ؛ وذلك لأن الله - تعالى - هو الحافظ لكتابه ، وإنما نحن قَرَأَة للكتاب ، لكني جريت على اصطلاح الناس اليوم ، فغفر الله لي جرأتي على عنوان كهذا وسوء أدبي ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

سنوات عديدة، وهو الأخ عبد الله نور ولي، وكان قد التزم الطريق القويم وأخذ في دراسة الفقه الحنفي؛ وذلك لأن الغالب على مسلمي الهند هو المذهب الحنفي، وكنت قد اطّلعت آنذاك على جملة من الكتب السلفية العقدية والفقهية، وفي بعضها شيء من الاختلاف مع المذهب الحنفي، ولقلة بضاعتي في العلم وأدب طلبه فقد كان يحلو لي أن أناقش أخي ذاك ساعات طويلة كل يوم في أصول المذهب الحنفي وفروعه، ويرد عليّ وأرد عليه، وأسفِّهُ - لجهلي - ما ذهب إليه وارتضاه، وأنصر بقوة ما ذهبت إليه وارتضيته، وكنا نصلي المغرب معًا في مسجد الحي كل ليلة، فإذا صلينا المغرب بقينا واقفيْن خارج المسجد نتناقش إلى أن تحين صلاة العشاء، ثم بعد الصلاة نظل واقفين في كثير من الأحيان ساعة وساعتين!! وهذا مما أعجب منه الآن.

وكنت أقرأ عليه ما حفظته من كتاب الله تعالى، ويقرأ عليَّ ما يحفظه، وبقينا على ذلك مدة.

وكم كنت أبقى في جدة في مسجد من مساجدها عقب الصلوات لأنهي حفظ ما أريد، وإلى يوم الناس هذا أمرّ بصفحات من القرآن قراءة ومراجعة فأذكر أين حفظتها وأين كنت أجلس في المسجد!!

وكان من يحفظ القرآن أو أجزاء عديدة منه قليلاً آنذاك، فأذكر أني أينما ذهبت قُدمت للإمامة!! على حداثة سني وضعف تجويدي آنذاك.

وكنت أتناوب الإمامة أنا وهو في مسجد الحي؛ وذلك لأننا كنا في وقت قلة من الأئمة، فمن كان يحفظ شيئًا ولو يسيرًا، ويفقه ولو قليلاً يُقدم للإمامة، فكنت أصلي بالناس ويعجبني أن أقرأ من سورتي التوبة والأنفال آيات الجهاد، فجاءني أحد الإخوة وقال لي: أنت تكثر من القراءة في سور الإخوان!! يريد السور التي يفضل الإخوان قراءتها، فعجبت من كلامه وذلك أني لم أفكر قط

في هذا، ولم أقرأ الذي قرأته إلا لحبي له وتفضيلي إياه لما فيه من معاني القوة والعزة، ولم أذهب بعيداً إلى ما ذهب إليه ذلك الأخ.

وكنت قد بدأت حفظ القرآن قُبيل نهاية الثانوية العامة، فحفظت في جدة سبعة أجزاء، وأكملت حفظ سائر القرآن في الولايات المتحدة مدةَ ابتعاثي فيها، وأذكر أني لما أردت الحفظ حدثت لي حادثة عددتها من جملة ما أنعم الله -تعالى- به عليّ، فقد أخذني أخي هذا الذي ذكرته آنفًا عبدالله نور ولي إلى أبيه -رحمه الله تعالى- مرةً، فلما علم أبوه أني أخذت في حفظ القرآن العظيم فرح بهذا وهو رجل من الصالحين أحسبه كذلك، وقال لي: هذا مصحف وهو هدية لك لتحفظ منه، ثم قال لي: إذا نسيت أن تصلي أحد الفروض وتذكرتها وأنت في الفراش نَعِسٌ، فهل تستطيع أن تنام؟ فقلت: لا، فقال لي: عُدَّ أن الله -تعالى- فرضَ على الناس كلهم الخمس الصلوات في اليوم والليلة، وفرض عليك أنت مع الخمس الصلوات حفظ صفحة كل يوم فلا تنم حتى تحفظها!!

وصنيع والد صاحبي هذا له عدة فوائد، منها:

أولاً: إن المصحف الذي أعطانيه موافق لعامة مصاحف بلادي الآن، وقد كان يسمى مصحف مكة، فلم يكن ترتيب طباعة المصحف على الطريقة المصرية، ولا على الطريقة الهندية، وقد كان كلا المصحفين منتشراً في جدة ذلك الوقت قبل ٤٠ سنة، وقد تضاءل وجودهما اليوم، فلو أني حفظت من أحد المصحفين لوجدت عنتًا اليوم لقلة انتشارهما؛ وذلك لأنه من المعلوم أن الحافظ من مصحف ما يُطبع في ذهنه صورة ما حفظ منه، فيعرف الآية وموقعها من الصفحة، وفي أي صفحة هي اليمنى أو اليسرى، فلو راجع من مصحف آخر صعُب عليه الوقوف على مكان الآية ولاختلط عليه أمر الترتيب الذي في ذهنه للآيات ومواقع وجودها.

ثانيًا: إن العهد الذي أخذه عليَّ بحفظ صفحة كل يوم نفعني الله - تعالى- به في الولايات المتحدة، حيث كنت أعاني من التعب بسبب التدريب لكني لما أتذكر ذلك العهد أحاول حفظ الصفحة مهما كنت متعبًا، بل كنت أحفظها بعض الأحيان أثناء التدريب إذا كان زميلي هو الممسك بالطائرة وأكون أنا ملاحظًا له، فلم أنقطع يومًا عن الحفظ حتى أتممت بفضل الله تعالى.

وقد أضفت إلى هذا العهد قراءة تفسير الصفحة كل يوم من كتاب «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب[1]، رحمه الله تعالى، وقد كان تفسير الصفحة الواحدة يستغرق صفحات كثيرة من الظلال لكني ثبتّ -بحمد الله تعالى- على ذلك.

الإجازة في قراءة القرآن العظيم:

بعد عودتي من أمريكا بأيام قلائل حصل لي أمر غيَّر مجرى طلبي للعلم الشرعي، فقد اجتمعت بأحد أصحابي آنذاك وهو الأستاذ رأفت نصار، فسألني: هل أتممت الحفظ؟

فقلت: نعم.

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٣٢٤ بقرية «موشا» في أسيوط. تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة»، وعُيِّن مدرسًا للعربية فموظفًا في ديوان وزارة المعارف ثم مراقبًا فنيًا بالوزارة. أوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم إلى أمريكا ثلاث سنوات. انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأعدم رحمه الله تعالى سنة ١٣٨٧، له مصنفات جليلة رائعة، وفي بعضها قليل من المؤاخذات بسبب النشأة الأدبية السابقة. وما أحسن كلمة الأستاذ علال الفاسي - رحمه الله تعالى - لما حصلت نكبة سنة ١٣٨٧: ما كان الله لينصر حربًا يقودها قاتل سيد قطب. وانظر «الأعلام»: ٣/ ١٤٧ - ١٤٨.

فقال لي: لِمَ لا تأخذ الإجازة؟

قلت: وما الإجازة؟

فشرح لي معناها ثم قال لي: هنالك شيخ سوري اسمه أيمن سويد، وهو يُدرِّس القرآن في جامع ابن لادن في حي الجامعة، ونصحني بالذهاب إليه، فأتيته في اليوم التالي، وأخبرته بعزمي على نيل الإجازة، فطلب مني القراءة، فقرأت شيئًا من القرآن العظيم، فقال لي: أنا لا أريد أن أقول إن قراءتك تستحق صفراً لكنها فوق الصفر بقليل!! فصدمني بكلامه هذا فقد كنت أُدرِّس التجويد لغيري في أمريكا، وأرى نفسي فاهمًا لقواعد التجويد إلى درجة معقولة، لكن كان ذلك وهمًا كبيراً؛ فالتلقي الذي تلقيته لقواعد التجويد شابه أخطاء كثيرة ولساني لم يكن قويمًا كما كنت أظن، ثم طلب مني أن آتيه عندما أكون مستعداً للاختبار في القرآن كله، فأتيته فاختبرني، ثم بدأت بقراءة متن «المقدمة الجزرية» في التجويد للحافظ ابن الجزري[1] وشرحها لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري[2]، رحمهما الله

---

(١) الإمام العلامة محمد بن محمد بن محمد، شمس الدين أبو الخير الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي المقرئ، ويعرف ب(ابن الجزري) نسبة لجزيرة ابن عمر قرب الموصل. ولد سنة ٧٥١ بدمشق، واشتد اعتناؤه بالقراءات. دخل القاهرة وجرت له فيها حوادث سافر على إثرها إلى بلاد الروم (الدولة العثمانية) ثم إلى شيراز حيث توفي بها سنة ٨٣٣، انظر «الضوء اللامع»: ٩/ ٢٥٥- ٢٦٠.

(٢) هو الشيخ زكريا بن محمد بن زكريا، الشيخ الإمام، زين الدين الأنصاري المصري الأزهري الشافعي. ولد سنة ٨٢٦، ونشأ في ضنك وشدة، واجتهد في طلب العلم، وتفقه على مشايخ كثيرين، وأخذ الحديث والقراءات على مشايخ حتى برع في فنون العلم وقصد بالرحلة من الحجاز والشام. وكان محظوظًا في أموره دينًا ودنيا، وجمع بين الأموال والكتب ما لم يتيسر لمثله، ورزق مصنفات حسنة وتلاميذ بررة. توفي سنة ٩٢٦، بعد أن عمر طويلاً، رحمه الله تعالى. انظر «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة»: ١/ ١٩٦ - ٢٠٧.

تعالى، وبدأت القراءة بحماسة شديدة، وكنت الطالب الأول له، فقد كان يأتيه أشخاص أميون كبار في السن لا يحسنون القراءة ولا تقبل طبيعتهم تعديل ألسنتهم، وكانوا من القبائل الذين درجت ألسنتهم على طريقة واحدة في قراءة القرآن يصعب تغييرها، وقد عانى الشيخ منهم طويلاً، فلما جئته سُرَّ بي جزاه الله خيرًا فقد لقي شخصًا يمكن تقويم لسانه!!

وانفردت بالشيخ بضعة أشهر حتى عُرف وأقبل الناس عليه، ومما استفدته من الشيخ، حفظه الله تعالى، وهو كثير:

١- قراءة القرآن عليه وإجازته لي برواية حفص من طريقي الشاطبية والطيبة، ثم إجازته لي بالقراءات العشر الصغرى من طريقي الشاطبية والدُّرة.

وقد قرأت عليه ثلاث ختمات سوى قراءة التدريب، واستغرق ذلك قرابة ثلاثين سنة!!

- وقد كان من طريقة الشيخ - حفظه الله تعالى ونفع به- أن أقرأ عليه منفردًا فيقوِّم قراءتي، ثم يقف على ما في تلك الآيات من مواعظ ورقائق فيفيض في بيانها، وقد كان في أحيان كثيرة يذكر ما بينه له مشايخه في تلك الآيات ووضحوه له من الرقائق والمواعظ، ثم إنه غالبًا ما يذكر قصصًا كثيرة في ثنايا الوعظ والإرشاد؛ ولذلك كانت القراءة عليه تستغرق ساعات طويلة، فلربما بدأنا في العصر ونفرغ في العاشرة ليلاً أو الحادية عشرة، وربما بدأنا الظهر وانتهينا في العشاء، وكان الشيخ سخيًا جدًا في إعطائي الساعات الطويلة ليلاً ونهارًا كل يوم تقريبًا دون كلل ولا ملل، وهذه الطريقة مفيدة جدًا للطالب، وفي الوقت نفسه هي عزيزة نادرة في زماننا هذا؛ إذ مَن مِن

المشايخ من يهب الساعات الطوال على هذا الوجه من السخاء والسماحة كل يوم؛ والشيخ لم يكتف بهذا بل كان من يشجعني على الالتزام بالدرس ويذكر أمثلة على الطلاب الذين كانوا يلتزمون بالحضور على المشايخ سنوات طوالاً دون غياب حتى أيام العيدين!! وذكرني أن أحد مشايخه أخبره أنه حضر على شيخه سبعة عشر عامًا دون أن ينقطع يومًا عن الحضور، ولا شك أن هذا نادر اليوم في دنيا الناس بل هو أشبه بالمتعذر، لكنه كان بهذه الأخبار ومثيلاتها يشحذ همتي التي كانت لا تحتاج إلى شحذ طويل، فقد كنت مسروراً بما يهبه لي الشيخ من ساعات طوال على هيئة شبه يومية سنوات طويلة؛ ولهذا كان أثره عليّ كبيراً، حفظه الله تعالى ونفع به.

ولم يكتف الشيخ بالمواعظ والآداب والزواجر أثناء القراءة بل كان يربط مدلولات الآيات بأحداث الزمان، ويخبرني بجملة منها، ويقف عند كثير من حوادث الدهر آنذاك ليناقشني فيها ويبين لي كيفية ربطها بمعاني الآيات القرآنية.

وجملة القول إن الشيخ بطريقته تلك كان يلقى عليّ جملة من العلوم والآداب كانت مفيدة جداً لشاب مثلي ابتدأ القراءة عليه في العشرين وختمها في الخمسين من عمره!!

٢- ضبط لساني وتصحيح نطقي، فقد كنت أقرأ من كتاب فإذا أخطأت في قواعد النحو أو النطق عدلني ودلني على الصواب، فكان لهذا - على توالي القراءة في شهور عديدة - أكبر الأثر في ضبط لساني وتقويم نطقي، ولله الحمد والمنة، وهذه طريقة مشهورة في التقويم تحدث في فائدتها الأستاذ

الشيخ علي الطنطاوي[1] -رحمه الله تعالى- في ذكرياته، وذكر أنها كانت متبعة في مكتب عنبر في دمشق، ثم إني وجدت أن حفظ الطلاب لقواعد النحو بدون أن يقف مرشد ما على ضبط لسانه بما حفظه من قواعد النحو أمر مرجوح، وقد ذكرت ذلك مفصلاً بعض الشيء آنفًا، فلا أعيده هاهنا.

ولم يكتف الشيخ بذلك بل كان يطلب مني أثناء القراءة إعراب عدد من الكلمات، وقد ذكر لي أكثر من مرة أنه مُعجب بجودة إعرابي، بل قال لي: لم يقرأ عليّ أعرب منك ومن الشيخ علي بادحدح -حفظه الله تعالى ونفع به- وكان معجبًا بالشيخ عليّ كثيراً، وقد قال لي أكثر من مرة: إنه لم يحتج أن يعيد تنبيه الشيخ علي على حكم تجويدي بعد بيانه له أول مرة، وكان الشيخ بهذا يُعرض بي لأني أتعبته كثيراً!!

٣- أفهمني الشيخ عدداً من المصطلحات العلمية الشرعية والمنطقية التي كانت في شرح المقدمة الجزرية على وجازته، وفي بعض الكتب الأخرى التي قرأتها عليه.

٤- الأدب الذي أخذني به الشيخ، أي أدب طالب العلم، فقد كان حريصًا جداً على ضبط سلوكي، وتقويم ما ساء من خلقي، وأخذي بأحسن الطرائق التي كان يراها هو مفيدة لي، وكذلك كان يقص عليّ الكثير جداً من الحكايات المعينة على نزع الصفات السيئة من نفسي، وبالذات حب الرئاسة

(١) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلًا. كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله آلاف الأحاديث في وسائل الإعلام، وله كذلك آلاف المقالات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٠هـ. انظر «ذيل الأعلام»: ٢/ ١٣٤-١٣٥.

وإرادة التصدر والشهرة، فلا أعلم الشيخ أكّد على أدب ما تأكيده على هذا الأدب، وكان جل ما يورده عليّ مواعظ وحكايات إنما هو لهدم هذا الأمر في نفسي، والتأكيد على عدم تعلقي به ألبتة، وهذا أراه من أهم ما استفدته منه في بابي الآداب.

٥- تحبيب الدراسة العلمية «الأكاديمية» إلى نفسي، فهو الذي شجعني على نيل الشهادة الجامعية الشرعية، بل كان يوصيني دائمًا بأن أحرص على الشهادة العالمية «الدكتوراه» حتى قبل أن ألتحق بالجامعة.

٦- حَبب إلي حفظ المتون، وهو حافظ متين مجيد إلى الغاية ما شاء الله لا قوة إلا به سبحانه، بل أقول: إني لمَ أر من أهل عصري مَن حفْظه يقارب حفظ الشيخ، ولا سرده بدون تلعثم لما يحفظه يقارب سرد الشيخ، إلا أن يكون الشيخ محمد الحسن ألددو، حفظهما الله تعالى ونفع بهما، لكن الشيخ كان يسمعني ما يحفظه على الطريقة المشرقية التي يساعد فيها الوجهُ واليدُ اللسانَ، وهي طريقة محببة لطيفة، وسأفرد هذه المسألة - مسألة الحفظ- بالحديث في صفحات قادمة، إن شاء الله تعالى.

٧- الوقت الطويل الذي منحه لي -جزاه الله خيرًا- للقراءة أو المباحثة في مسائل العلم والسلوك، أو الحكايات المرققة والمهذبة، فكنت أمكث عنده ساعات طويلة بمعدل ٣-٤ أيام في الأسبوع سنوات طويلة تقارب العشرين سنة!!

ثم إنه شُغل وشغلت بأمور، لكنه كان يتيح لي من وقته ساعات طويلة كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا الأمر -أي ملازمة المشايخ على هذا النحو- نافع للطلبة جدًا.

ثم إن الشيخ -حفظه الله تعالى- لم يكتف بهذا بل أنشأ مجلسًا للحفاظ، وكان يُلزم الطلاب الذين يقرأون عليه لتحصيل الإجازة بحضور هذا المجلس، ومَن تخرج على يديه من الطلاب وأجازه يُلزمه بالحضور -أيضًا- فكنا حوالي عشرين طالبًا وأقلّ وأكثر، فيُعقد المجلس قرابة ساعتين، فيفتتح الشيخ المجلس بالدعاء، ثم يقرأ الطلاب تباعًا في كتب اختارها هو، وأتذكر منها الآن كتاب «تعليم المتعلم طرق التعلم» لبرهان الدين الزرنوجي[1]، و«التبيان في آداب حامل القرآن» للإمام النووي[2]، رحمه الله تعالى، وغيرهما، ويشرح الشيخ ما يحتاج إلى شرح، فيمهد للطالب طرائق الطلب مع التزام الأدب، وبعد ذلك يقرأ الطلاب القرآن تباعًا؛ يقرأ كل طالب صفحة من القرآن غيبًا، ومَن بعده يتلوه بالصفحة التي بعدها، وهكذا. . .

والشيخ في كل ذلك يصحح ويُقَوِّم، مع وعظ الطلاب إن قرأ الطالب موضعًا صالحًا للوعظ، أو تنبيههم على بعض معاني ما يقرءون، وربط بعض الآيات بوقائع كانت تجري في حياة الناس آنذاك، كل ذلك مع المراعاة التامة للأدب مع الشيخ والطلاب، والاحترامُ للقرآن جارٍ على أحسن السنن

(١) المتوفى عام ٥٩١ هـ، وهو أحد فقهاء الحنفية، وتتلمذ على يد المرغيناني الحنفي صاحب كتاب الهداية، وهو من بلدة تسمى زرنوج وهي من بلاد الترك وراء أوزجند، وهي من بلاد أوزبكستان اليوم. اشتهر بكتابه المسمى: «تعليم المتعلم طريق التعلم»، انظر «معجم المؤلفين»: ٣/ ٤٣، و«كشف الظنون»: ١/ ٤٢٥.

(٢) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرِّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألف مصنفات نافعة جدًا. توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات» ٤/ ٢٦٤-٢٦٨.

والطرائق، هذا كله والطلاب مصغون منتبهون، غضةٌ أعمارهم، قليلة معارفهم، لكنْ حسنٌ إقبالهم، ذوو أدب وطرائقَ حميدة في الجملة، فلا تسأل عن حسن أثر هذا المجلس في الطلاب، ولا عن الفوائد التي جنيناها آنذاك وقد كنا بين فتيان وشباب، أعمارنا ما بين السابعة عشرة إلى الثانية والعشرين تقريبًا.

والمقصود من ذكر هذا المجلس هو التنبيه على طريقة جميلة سُلكت من قبل في ضبط الطلاب قبل الإجازة وبعدها، وفي بقاء المرجعية العلمية رقيبة عليهم.

وظل هذا المجلس منعقداً سنوات جميلات بعد ذلك حتى فرقتنا يد الزمان، وشتتنا اختلاف المَلَوان: الليل والنهار، وإن آس على شيء فإني آسي على مثل تلك المجالس، وإن حثثت على عمل شيء فإني أحث على بدئها من جديد، والسير على طريقتها والنسج على منوالها، والله المستعان.

وله عليَّ من الفضل غير ذلك، مما سأذكره في موضع آخر، من هذه الرسالة ومن غيرها إن شاء الله تعالى.

●●●

المبحث الثالث

الدراسة الجامعية

- مواقف ولطائف.

عزمت سنة ١٤٠٣/ ١٩٨٣ على الدراسة الشرعية في جامعة من الجامعات الشرعية انتسابًا، لالتزامي بالعمل في الخطوط السعودية، فنظرت فإذا ليس هناك جامعة تقبل الانتساب آنذاك سوى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في مقرها الرئيس في الرياض، وفي فرعها في القصيم، وفرعها في أبها، فاخترت فرع أبها، وكان في ذلك خير كثير، بفضل الله تعالى، على أنني عانيت كثيراً بسبب نظام الاختبارات آنذاك؛ فقد كانت الدراسة موزعة على ثمانية فصول، وفي كل فصل اختبار نصفي ونهائي، وكان الاختبار يمتد إلى أحد عشر يومًا وفي بعض الأحيان إلى ثلاثة عشر يومًا وربما خمسة عشر يومًا، وكنت أختلف إلى الجامعة تلك الأيام كلها سوى اختلافي إليها لتصوير المناهج من الطلاب واستلام جدول الاختبارات، ولم يكن هناك شيء يُقضى بالهاتف تلك الأيام!! ولم يكن هناك وسائل اتصال حديثة كما هو الحال اليوم، وكنت أعاني كل المعاناة مع الطلاب المنتظمين لأصور المناهج؛ فقد كان بعضهم يصدني، وبعضهم الآخر يكتب على باب غرفته في السكن: يمنع طرق المنتسبين للباب!! وبعض الطلاب كان فيهم عنصرية واستعلاء على الآخرين، والحمد لله -تعالى- على كل حال.

وأصدقكم القول: إن أحسن أيام الطلب التي عشتها كانت أيام الطلب في أبها؛ فقد أحاطني جماعة من المشايخ بعناية فائقة، ومحبة صادقة، وعطف ظاهر، وأنزلني الشيخ الفاضل ذو المروءة والكرم الدكتور عوض القرني -وكيل شؤون الطلاب- في بيته طوال مدة ترددي على أبها، وأتعب نفسه وأهله في خدمتي وراحتي، ولا أنسى أخاه مناعًا ولطفه ووجوده معي معظم الوقت أيام

الاختبارات؛ فقد كان منزله بجوار منزل أخيه، وكذلك أخوهما عايض الذي كان يعيش مع أخيه عوض، والأستاذ سعد بن فالح الذي كان يعيش مع عايض؛ ولا أنسى لطف المشايخ الذين كانوا آنذاك معيدين في فرع الجامعة وهم الدكاترة: الشيخ سعيد بن ناصر الغامدي، والشيخ حسين شريف، والشيخ مهدي الحكمي، والشيخ المشهور عايض القرني، والشيخ علي حسين، وغيرهم ممن كنت أسمر معهم ونتذاكر العلم والأدب والطرائف، فجزاهم الله - تعالى - عني خيراً(١).

ومن المواقف واللطائف التي أتذكرها من سنوات الدراسة الجامعية:

١- في المقابلة الشخصية التي عُقدت من أجل تقويم الطلاب كان هناك شيخان: أحدهما دكتور أردني لا أذكر اسمه الآن، والآخر هو الشيخ السوري المشهور آنذاك د. عبدالرحيم الطحان، حفظه الله تعالى، ولما فرغا من المقابلة معي سألني الشيخ عن الكلية التي أريدها، فقلت بلا تردد: الشريعة، فألح عليّ أن ألتحق بكلية أصول الدين، فأصررت على كلية الشريعة، مجترئًا على هيبة الشيخ، رادًا طلبه، ومن الصعب أن يُرد لكن كنت أرى أن كلية الشريعة فيها من الشمول ما ليس في سائر الكليات الشرعية، فلما أردت الالتحاق بالدراسات العليا اخترت كلية أصول الدين!! ولقيت صعوبات بسبب ذلك، وسأذكر هذا لاحقًا، إن شاء الله تعالى.

(١) سردت بعض تفاصيل أيامي التي عشتها في أبها في حلقة «أيام في عسير» التي هي جزء من القسم الأول المنشور من الذكريات بعنوان «رحلاتي».

٢- في المقابلات الشخصية خرج أحد المقابَلين فسأل الطلاب عن الحافظ ابن حجر، ومن هو؟ فقلت: هو عالم في الحديث حافظ توفي سنة ٨٥٢، فقال: يعني مات!! وكان متحسراً لأنه لم يعرفه وأجاب إجابة خاطئة في المقابلة.

٣- كان أحد المقابَلين يسأل عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فقلت له: هو عالم شاميّ فتعجب جداً، وقال: كنت أظنه نجديًا!!

٤- في أحد اختبارات القرآن دخل معي إلى مقر اللجنة طالب ضعيف من عوام الطلاب، وكان في اللجنة شيخ مصري فاضل دمث، كان أحد أعضاء لجنة تصحيح مصحف الملك فهد المطبوع في المدينة النبوية المنورة- على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- وقد نسيت اسمه، فقال لي أحد الأساتذة وكان مصريًا أيضًا:

اقرا. فقلت: بأي قراءة؟ وكان هذا مني فضولاً لا داعي ولا مسوغ إلا أن أُري اللجنة أني أعرف القراءات، وهذا كان من رعونات نفسي آنذاك. غفر الله تعالى لي.

فقال بتأفف وضيق: اقرأ لحفص فهي الرواية السائدة.

فقال ذلك الشيخ الفاضل: هل تعرف القراءات؟

فقلت: نعم، فسألني سؤالين أصبت في أحدهما وأخطأت في الآخر، فلما خرجت مع الطالب صاح بالطلاب المجتمعين على باب اللجنة: إياكم أن يدخل مع هذا أحد، فهو يقرأ لأبي مريم وخديجة!! وهو يفضح من معه!! وإنما قال

الطالب ذلك لأن مشايخ القراءة فيهم من عُرف بكنيته مثل ابن كثير وأبي عمرو البصري وابن عامر الدمشقي ؛ لذلك قال الطالب ما قال ! !

٥- ومن الغرائب أني اختُبرت مرةً في مادة القرآن وكان المختبر شيخًا مصريًا، فلما قرأت ساءه شيء من قراءتي ؛ وذلك لأن هناك بعض الفروق اليسيرة بين طريقة الأداء المصري والشامي ، ولما كان شيخي شاميًا فقد كنت على طريقته فلم يعجب بعض ما قرأته الشيخ المصري ، فقال : هذا خطأ .

فقلت : هكذا قرأته على شيخي .

فقال : لو قرأته على جبريل فهو خطأ أيضًا ! ! وهذه جرأة غير محمودة من الشيخ وسوء أدب ، غفر الله -تعالى- له .

٦- ومن العجائب أن طالبًا من الطلاب أثناء الاختبارات أُمسك به وهو يغش ، فأراد الأستاذ المراقب إلغاء اختباره فأظهر ممانعة كبيرة ، فجاء المدير ليلغي اختباره ، فرجاه الطالب ألا يصنع ، وساقه الرجاء إلى أن نزل يريد تقبيل قدميه ! ! وهذه ذلة مرذولة من طالب علم لكنه كان كبير السن ، كما كان معظم طلاب الانتساب آنذاك ، حريصًا جدًا على النجاح في الاختبار ، فقد كان هو ومَن على شاكلته من أساتذة المدارس المعينين على المرتبة الرابعة من خريجي الثانوية ، وكان حصولهم على الشهادة الجامعية ينقلهم إلى المرتبة السادسة ، وهي مرتبة لم يكونوا ليبلغوها لو بقوا على شهادتهم الثانوية ، فلذلك كان كثير من أولئك يريد الانتساب ، وكان معظمهم كباراً في سنهم ، وعدد كبير منهم لم يكونوا ملتزمين ؛ ولذلك أقدم ذاك الطالب على ما أقدم عليه .

وكان جُلّ المتقدمين من تلك الطبقة التي تجهل كثيراً من تفاصيل الشريعة وأخبار العلماء؛ ولذلك كان يصدر منهم أمثال ما ذكرته.

٧- ومن اللطائف أني كنت مرة ذاهبًا للاختبار على أنه في مادة كذا، فلما وُزعت الأسئلة ظهر أن الاختبار في مادة أخرى، وهذا كان بسبب الخطأ في جدول الاختبارات الذي لم يكن يصلني إلا بصعوبة فأنا في بلد والجامعة في بلد آخر، ويصعب عليّ أن آتي لأخذ الجدول في بعض الأحيان، والذي كلفته بأخذه أخطأ في تسجيل المادة المقررة للاختبار في ذلك اليوم.

٨- ومن الأمور التي أذكرها فأعجب منها الآن أني كنت قد استيقظت مع أذان الفجر في ليلة من ليالي الاختبارات، وكانت المادة في الحديث: شرحه ومصطلحه، فسمعت من يقول لي في أذني وأنا أهبّ من فراشي مرتين: «المقلوب، المقلوب»فقلت في نفسي: إن المقلوب الذي ذُكر لي إنما المراد به نوع من أنواع الحديث الضعيف فلأراجع هذا في الكتاب، وراجعته سريعًا قبل الاختبار، فلما دخلت الاختبار وجدت سؤالاً واحداً فقط في قسم مصطلح الحديث يدور حول الحديث المقلوب وأنواعه، فعجبت مما جرى لي، وأرجعت هذا إلى ما كنت عليه آنذاك من شيء من الإيمان والصفاء وحسن الصلة بالله - تعالى- مما أتحسر على ضياع كثير منه اليوم مني، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٩- ولا أنسى أنني لما ذهبت إلى أبها أول مرة دخلت مسجداً لأصلي الظهر فقام أحد المصلين مرحبًا مهللاً، فتلفت ورائي ظانًا أن الترحيب ليس لي، فإذا بالرجل يريدني أن أتغدى عنده وقد كان جاداً! ! فاعتذرت له وتعجبت من

صنيعه، فلما أخبرت الدكتور عوضًا بهذا ضحك وأخبرني أن هذا من عادات أهل المنطقة مع الغرباء، فلما رأى سحنتك علم أنك لست من أهل البلد فدعاك، فعجبت من كرمهم وعنايتهم بالضيف، وتحسرت على تضييعنا هذا الكرم وأصول الضيافة في منطقتنا.

١٠- وفي الجملة لم يكن ينغص عليّ شيء في مدة دراستي إلا البرد الشديد في أيام الشتاء، ولا أنسى أني كنت أُمسك بالقلم في قاعة الاختبار بصعوبة وأحس كأنما أصابعي قد تجمدت، وكان مما عجبت منه أن أخو الشيخ عوض الشيخ عايض -وكان فتى آنذاك- كان يبيت معي في الغرفة فيأتي الشيخ عوض إليه وهو نائم فيناديه لبعض شأنه، فيقوم سريعًا غير ضجر ولا معترض، وهذا منه في شدة البرد وصغر سنه عجيب.

ثم إني رأيته مرة يحمل صابون «التايد» ويذهب به إلى بيت الخلاء، فما راعني منه إلا أنه يغتسل في شدة البرد بهذا الصابون وليس في بيت الخلاء سخان للماء، وقد كنت أرقبه يصنع هذا وأنا ملتف في دثارى من شدة البرد وهو غير مكترث ولا آبه به، فسبحان الله العظيم؛ إذ لو اغتسل بالماء فلربما يتحمل مروره على جسده سريعًا لكن أن يمزج ذلك بصابون «التايد» الذي يتأخر زواله من البشرة، ويقتضي ذلك إفاضة ماء كثير فهذا عين العجب، لكن الله تعالى يهب من القدرة لعباده ما يشاء وصدق تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]!!

لكن لعل لبعد سكان المنطقة عن الترف سببًا في هذا، أما أمثالى ممن انغمس في الترف فلا يكاد يقوى على شيء من هذا، والله المستعان.

١١- وأذكر مرة أني كنت أريد أن أسافر من جدة إلى أبها بالطائرة لأدرك الاختبار في اليوم التالي فجئت إلى المطار فإذا بالطائرة مليئة وليس فيها مقعد شاغر، فجئت إلى المشرف ليشفع لي في إيجاد مقعد فاعتذر، فاتصلت بقائد الطائرة مستئذنًا له أن أسافر معه في المقصورة فأذن لي، فذهبت إلى أحد موظفي الحركة فأعطاني بطاقة صعود إلى الطائرة، فلما اتجهت إلى القاعة قابلني المشرف فسألني إلى أين؟ فقلت إن قائد الطائرة أذن لي ومنحني مقعدًا في المقصورة، فقال: أرني البطاقة فأعطيته إياها فما كان منه -غفر الله له- إلا أن مزقها وقال لي: قد قلت لك لا يوجد مقعد!! فركبني من الهمّ ما الله به عليم إذ الاختبار في اليوم التالي، فذهبت إليه في غرفته فقرعته وأنبته ودعوت عليه، فلم يعتذر ولم يكترث للؤم فيه وسوء أدب، لكن الله تعالى لطف بي؛ إذ اتصلت على زميل لي منتسب أريد إخباره بما جرى عليّ ليعتذر لي نيابة عني للكلية لكنه أخبرني أن الاختبار بعد يومين وليس غدًا، فحمدت الله تعالى أن لطف بي، فسافرت في اليوم التالي، لكن طال عجبي من سوء خلق ذلك المشرف وصنيعه الذي لا مسوغ له.

●●●

المبحث الرابع:

الدراسات العليا

بقيت في جامعة الإمام من سنة ١٤٠٣هـ إلى سنة ١٤٠٨/ ١٩٨٨ وبعد الفراغ يممت وجهي تلقاء جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وقدمت أوراقي عند عميد كلية الدعوة وأصول الدين!! وإنما صنعت هذا وقد تخرجت في كلية الشريعة لأني كنت أريد الالتحاق بقسم مهم في كلية الدعوة وأصول الدين وهو قسم الكتاب والسنة، فقد كان القسم الوحيد في الدراسات العليا في المملكة الجامع بين الكتاب والسنة، وهذه فرصة جليلة للتزود من علوم الوحيين معًا، وذاك أن العادة السارية في أكثر طلاب الدراسات العليا أنهم يعرفون ما يتخصصون فيه فقط، وأما غير ذلك فهم في معزل عنه تقريبًا، فتجد طالب الحديث ضعيفًا في علوم القرآن والعكس صحيح.

فلم يرضَ العميد تسجيلي لأني تخرجت في كلية الشريعة وينبغي أن أواصل في الشريعة، ولأن عدد الطلاب المسجلين المنتظمين كبير جدًا وأنا منتسب، ثم إني من جامعة الإمام محمد بن سعود والأولى قَبول طلاب جامعة أم القرى، ثم إن هنالك عددًا كبيرًا من الطلاب المتقدمين حصلوا على درجات أكثر مني[1]، فقلت له: ألم آتك لأسجل حسب النظام، وشروطه ومتطلباته؟ فقال: بلى.

فقلت: اقبلني ثم إذا لم أنجح في الاختبار التحريريّ والمقابلة الشخصية فأخرجني من البرنامج، ثم إني أحفظ منظومات في علوم القرآن وغيرها فكلية

---

(١) لم أكن أهتم بما أحصل عليه من الدرجات في سنوات الكلية، ولم أكن متفرغًا للدراسة كما ينبغي، فقد كنت أعمل في الخطوط، وعندي - أيضًا - ما يشغلني من العمل الدعوي والتأليف وغير ذلك.

أصول الدين أقرب إلى نفسي وما أجيده، فأبى كل الإباء، فلما أيأسني خرجت من عنده حزينًا كاسف البال، فناداني لما وصلت إلى الباب وقال لي: هل تقبل أن تُسجل في قسم العقيدة؟! وهذا مناقض لاعتراضه عليّ باختلاف التخصص، لكنه وضعني في زاوية لا أستطيع الخروج منها، فأجبته بالموافقة لأني كنت أريد المواصلة في الدراسات العليا ولو لم تكن في التخصص الذي أحبه وأفضله وأريده، فهو خير من لا شيء، فأحالني إلى قسم العقيدة، ثم جئت في موعد ضُرب لي للمقابلة الشخصية، فلما لم يبقَ لدخولي إلا فراغُ طالب واحد فقط قبلي من المقابلة جاءني أحد الأساتذة الفضلاء ليخبرني أنه قد شفع لي بدخول كلية الدعوة وأصول الدين، وهي الكلية التي أريد وطلب مني مقابلة العميد، فذهبت إليه بعد أن أجريت المقابلة الشخصية في قسم الكتاب والسنة، وكان يومَ سبت، وكنت قد قابلته -كما ذكرت آنفًا- يوم الأربعاء قبله، فما راعني منه إلا أنه هش وبش في وجهي، ولم أر منه ابتسامة قبل ذلك اليوم، وقال لي: أنت تحفظ المنظومات، ومكانك الطبيعي في كلية الدعوة وأصول الدين!! وعلم الله أني قد أخبرته بهذا من قبل لكنه لم يقبل مني، فما أعظم سحرَ الوساطات والشفاعات!!

وقبلت بفضل الله -تعالى- في كلية الدعوة وأصول الدين، واجتزت المقابلة والاختبار التحريري، واضطررت للخروج من الخطوط السعودية ستة أشهر بدون راتب، فقد طلب مني العميد التفرغ للدراسة كل السنوات المخصصة لدراسة الماجستير، فقلت له: كيف هذا والخطوط ليس عندها هذا النظام، فأصر على ذلك فأتيته بورقة تفرغ من الخطوط فقبلها.

وكان خروجي من الخطوط في تلك الإجازة امتحانًا لي غير يسير؛ فقد أتى

بي مديري في العمل -وهو كابتن- وقال لي: إن النظام لا يضمن لك العودة إلى ما كنت عليه من العمل نفسه - وقد كنت مساعد قائدة طائرة آنذاك - وخوفني، لكن شوقي الكبير لإكمال الدراسات العليا صَغَّر في عيني كل تخويف، وبقائي بدون راتب ستة أشهر لم يكن يسيراً عليّ لكن الله -تعالى- بفضله ومنّه نفى عني كل تلك الوساوس، وحفظني من التراجع.

ولا أدري لماذا كان نظام الدراسات العليا يشترط التفرغ من العمل الوظيفي، إذ كل ما ينبغي على القائمين على الدراسة صنيعه أن يضبطوا حضور الطلاب اليومي فمن تخلف قدراً معيناً من الأيام أخرجوه من الدراسة، وما عليهم بعد ذلك إن كان الطالب الموظف متفرغاً أو غير متفرغ، لكن العجب كل العجب أن تكون الأنظمة مقيدة للطلاب عِوضَ أن تكون مساعدة لهم ومعينة.

وكان مما أعجبني في السنة الدراسية المنهجية التي كانت سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ما يلي:

١- طريقة الأستاذ الشيخ الشريف د. منصور العبدليّ -رحمه الله تعالى- في تقرير مادة التخريج ودراسة الأسانيد، وأراها طريقة نافعة جداً للطلاب، ومبعدة للملل عنهم وجاذبة لانتباههم، فكان يبدأ بقراءة الحديث بسنده، فيقول: من فلان هذا الراوي في السند؟ ومن أي بلد هو؟ ومتى توفي؟ وأين نجد سيرته فيلج من موضوع إلى آخر، ومن كتاب إلى آخر، ومن مسألة إلى أخرى إلى أن تنتهي المحاضرة ولا يكاد الطلاب يشعرون بمرور الوقت، لكن الله تعالى ما متعنا به طويلاً فقد صُدمت سيارته فتوفي رحمه الله -تعالى- ونفعنا بعلمه.

وقد اقتفيت طريقته التي سلكها معنا، وصرت أفضلها في عامة حلقاتي مع طلابي، ووجدت لهذا أثرًا وفائدة كبرى.

٢- طريقة الأستاذ الشيخ د. سليمان الصادق البيرة الليبي الجنسية، وقد كان يدرسنا مادة التفسير الموضوعي، فكان لا يتلو من كتاب، ولا يقرر شيئًا من مقرر معين إنما يلقي المادة إلقاء من قِبَل نَفْسه، فكان يلقي علينا موضوعات متميزة جيدة مثل التوبة في القرآن، الاستغفار في القرآن، الذكر في القرآن إلخ... فكان يقررها بطريقة إيمانية جليلة تستدر شؤون عيون بعض الطلاب، ويتأثرون بما يلقي تأثرًا حسنًا، وهو ممن يحسن الحديث في الصلاة والخشوع فيها، وقد ترددت عليه في بيته كثيرًا، واستفدت منه استفادة جمة، وصحبته في إحدى حملات الحج، وللحديث عنه مكان آخر إن شاء الله تعالى.

وكان يقص علينا من أخبار الطاغية القذافي الهالك الشيء الكثير العجيب مما وقف عليه بنفسه أو سمعه سماعًا موثقًا، فكان يُطلعنا على عدة أمور فتح بها آذاننا، وفتق بها أذهاننا، وبصرنا بأحوال ما كان لمثلنا أن يطلع عليها بما كان متوافرًا في العالم آنذاك من وسائل الإعلام.

وكان هذا الأستاذ يدرس وفي الوقت نفسه يربي الطلاب إذا حاد منهم أحد عن نهج الأدب، فقد تجرأ أحد الطلاب يومًا فوضع رجلاً على أخرى أمام الأستاذ فلقنه درسًا قاسيًا، وكان هذا الأستاذ مهيبًا قليل الابتسامة يخشاه الطلاب، لكن من عرفه وخالطه أحبه وأقبل عليه.

٣- طريقة الأستاذ الدكتور عبد المهدي عبدالقادر عبدالهادي المصري الجنسية:

درسنا هذا الأستاذ مادة شرح الحديث، فكان جيداً في تدريسه وإلقائه المادة على طلابه، وكان أيضاً مهيباً قليل التبسم، لكنه كان صاحب طرائف ونوادر، فعلى سبيل المثال كان يسألنا: هل تأكلون الفول؟

قلنا: نعم.

فقال: إياكم أن تأكلوه فهو مطعوم البهائم!! والشافعي لم يكن يرى فيه الزكاة.

وهذا عجيب منه؛ وذلك أن الفول أصبح أحد الأكلات الشعبية المفضلة في كثير من بلاد العرب، وله فوائد صحية عديدة.

ومن طرائفه أنه لما علم أني درست في القسم العلمي في الثانوية قال لي أمام الطلاب: يا محمد: هل درست الرياضيات؟

فقلت: نعم.

فقال لي: هل درست جاجتا، وظاظتا؟

فقلت: نعم.

فقال لي: ما هذه الجاجتا والظاظتا؟ وهل تفيد شيئاً؟ فضحكت متعجباً منه لأنه كان جاداً ولم يكن هازلاً، وهذا الذي يسألني عنه هو أساس مهم من أسس الرياضيات، وهو علم إسلامي اخترعه الخوارزمي[1] كما هو معلوم

(١) محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبد الله. رياضي فلكي مؤرخ، من أهل خوارزم، ينعت بالأستاذ. ولد سنة ١٦٤/ ٧٨١، أقامه المأمون العباسي قيماً على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وأمره باختصار «المجسطي» لبطليموس، فاختصره وسماه «السند هند» أي الدهر الداهر، فكان هذا الكتاب، كما يقول ملتبرون الجغرافي «Melte Brun» أساساً لعلم الفلك بعد الإسلام. وللخوارزمي كتاب «الجبر والمقابلة» ترجم إلى اللاتينية ثم إلى الإنجليزية، ونشر بهما وطبع بالعربية مختصر منه، وله كتب أخرى. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ٢٣٥/ ٨٥٠. انظر «الأعلام» ٧/ ١١٦.

فيما اخترعه من علم الجبر، ولا ينبغي الوضع منه أو تحقيره لأنه ثبتت فائدته.

- ومن طرائفه أنه قال لنا مرة: عليكم يا أبنائي بالعمل الجماعي فهو مثمر، فقلت له: كيف هذا يا شيخ؟

فقال: إذا كان الواحد منكم مدعواً لمحاضرة فلا بد من سيارة تأتي به وسيارة تُرْجِعه!! وضحكت من هذا التصور الغريب للعمل الجماعي.

- وكان يسيء الثناء جدًا على الحاسب الآلي واستعماله في العلوم الشرعية، وكان استعماله آنذاك في طور البَدء، فكان الشيخ يصب جام غضبه على الحاسب الآلي واستعمالاته، وقد حاول بعض الطلاب أن يقنعوه بأهميته، لكن الشيخ كان ممن إذا رسخ في ذهنه أمر ما فمن الصعب تغييره.

وقد توثقت علاقتي بالأستاذ لما علم أن الوالدة -حفظها الله تعالى- مصرية، وقربني إليه، وكنت آتيه في مكتبه وأمكث معه بعض الوقت ونتجاذب أطراف الحديث.

٤- ومن الطرائف التي جرت في السنة التمهيدية في «الماجستير» أن شيخًا شنقيطيًا فاضلاً كان يدرسنا مادة التفسير من كتاب «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- ففسر لنا، حفظه الله تعالى، آيات مختارةً من سورتي الأنعام والنساء، فلما أخذ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] قال: إن هذه الآية تدل على أن

(١) سورة الأنعام: آية ١٣.

كل شيء في الكون أصله السكون، فلم يعجبني هذا القول فاستأذنت لأتكلم، وكان فيما قلته: إن العلم الحديث أثبت أن أصل تكوين كل شيء هو الذرة التي فيها بروتون وهو نواة الذرة، وإلكترونات تدور حوله، فعلى هذا فالأصل في كل شيء هو الحركة والدوران.

فقال لي: أتريد أن تقول لي: إن هذه «الطاولة» التي أمامي تدور!! إن هذا لا يكون، إن هذا لا يكون!!

فقلت له: لما كانت هذه الذرات متناهية الصغر فإنه تجتمع لتكوين خشب هذه الطاولة بلايين الذرات المتراصة تراصًا متقنًا فتبدو الطاولة على ما هي عليه من تماسك، فلم يعجبه كلامي ولم يلق عنده أذنًا صاغية ولم يستحسنه، وكذلك بعض الطلاب.

وهذا يقودني إلى الحديث عن مشكلة طلاب العلم الشرعي الذين لم يجمعوا إليه العلم الطبيعي، فيبقى هؤلاء - على فضلهم وذكاء بعضهم وجودة قريحته وقوة عارضته - لا يتصور كثيراً من مسائل العلم الطبيعي، بل يتجاوز هذا إلى الجزم باستحالة ما ذهب إليه العلم من تفسير كثير من حقائق الكون وتخطئة القائلين بهذا، وقد كان هذا الأمر سائداً عند طلاب العلم آنذاك ولا أدري حالهم اليوم كيف هو، هذا وقد كان كثير من مشايخ السلف والخلف على دراية جيدة بمسائل العلوم في عصرهم، بل كان بعضهم يعد من الأطباء أو الفلكيين أو من العالمين بالنبات والأدوية، أما في عصرنا هذا فقد أوجب سلوك طريق الدراسات الشرعية في المعاهد العلمية في بلادي - وهي التي تدرس علوم الشريعة - عدم اطلاع الطلاب على أكثر العلوم والفنون الطبيعية، وعدم

معرفتهم باللغة الإنجليزية ؛ ولذلك أثر لا ينكر في تكوين شخصياتهم العلمية ، وإن كنت لا أرى أن تعلم لغة أجنبية أمر محمود إلا لمن هو محتاج إليها ، أما طلبة العلم الشرعي فإن تعلموها فهو أمر حسن ، وإن جهلوها فلا يضرهم ذلك شيئًا .

- ومما يحسن ذكره مما جرى عليَّ في السنة المنهجية أن الشيخ العلامة محمد ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- زار الجامعة ، فجمعوا له طلاب الدراسات العليا في الشريعة وأصول الدين ، وأخذ الطلاب يسألونه ، فاستأذنت وقلت له : يا شيخ : إن المنكرات في جدة قد وصلت إلى حد ينبغي معه التحرك ، ونحن - طلبة العلم - لا نجد نصيراً ولا معينًا ، فأذكر أن الشيخ صمت صمتًا مطبقًا عجيبًا ولم يجبني بشيء ، وظل الطلاب صامتين إلا واحدًا أسعفني وقال قريبًا مما قلت ، فسارع عميد كلية الدعوة وأصول الدين بالقول مسعفًا للشيخ ومخرجًا لنا جميعًا من ذلك الموقف : إن طالب العلم ينكر على قدر جهده وطاقته ، وأما ما لا يستطيعه فليس مكلفًا به ، ولا ريب أن هذا القول من العميد لم يوافق رضى مني ولا قبولاً وذلك أني لم أُرد بسؤالي هذا ما ذهب إليه العميد في كلامه .

ولما حان وقت اختبارات آخر السنة المنهجية انتقلت بأهلي أم علي وابنتي مريم وآسية ، وابني عليّ إلى مكة ، وسكنت في شقة أعدها لي شيخي الدكتور محمد علي إبراهيم -حفظه الله تعالى- متفرغًا للدراسة ، وكان الوقت صيفًا فكنت أذهب إلى الحرم لصلاة الفجر ، وأمكث بعد الصلاة قرابة ثلاث ساعات أراجع المادة من كل جوانبها ، ثم أذهب إلى الجامعة لأدرك الاختبار الذي كان

من الساعة التاسعة إلى الثانية عشرة، ولما ظهرت النتائج كنت الأول على الدفعة -بفضل الله تعالى ومنه- فلما جئت إلى العميد الذي فعل بي ما فعل مما شرحته آنفًا وجدته متضايقًا من النتيجة إلى الحد الذي طال عجبي منه، وهنأني بكلمات مقتضبات جافات، ولا أدري سببًا دعاه لهذا، غفر الله لي وله.

ولما أردت اختيار بحث للماجستير لم أجد موضوعًا يلائمني، ورأيت أن اختيار مخطوط لأحققه أولى بحالي وشأني، وذلك أني كنت أسابق الزمان قبل أن يحلّ شيء مانع، فاخترت مخطوطة لأحققها وكانت بعنوان «التذكرة في القراءات الثمان» لعالم من القرن الخامس واسمه أبو معشر عبدالكريم بن عبدالصمد الطبري - المتوفى سنة ٤٧٨، رحمه الله تعالى- فوضعت خطة وعرضتها على القسم فوافقوا عليها ووافق عليها مجلس الكلية ثم مجلس الجامعة، واختير لي الشيخ محمد ولد سيدي ولد الحبيب مشرفًا، والحق أن الشيخ كان له من اسمه أكبر النصيب، فهو حبيب محبوب، سهل قريب، لين هين، متواضع، على طريقة أهل بلاده شنقيط من البعد عن التكلف في كل شيء، ومن التخفف من الدنيا وعلائقها، فكان إشرافه عليّ من جملة نعم الله - تعالى- عليّ التي لا تعد ولا تُحصى، فقد كان هينًا لينًا، لم يكلفني بشيء، ولم يثقل عليّ في شيء، وكان شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف عن كثير من المشايخ الذين كنت أسمع أنهم يكلفون طلابهم شططًا، ويريدون منهم أمورًا ليست - في كثير من الأحيان- إلا عنتًا محضًا وتحكمًا لا وجه له، ففرغت سريعًا من تحقيق المخطوط ودراسته، ووقف معي في قراءة المخطوط موجهًا ومشرفًا ومصححًا فضيلة شيخي الدكتور أيمن سويد الخبير بالمخطوطات وقراءتها، فاستفدت أيما فائدة، فجزاه الله - تعالى- عني خيرًا.

ولما فرغت من نسخ المخطوط ومقابلته، ودراسة حياة المصنف وعصره، ودراسة المخطوط من كل وجه ومن ثم تحقيقه، ورضي عنه المشرف قدمته للكلية، وحُدد لي وقت للمناقشة، فلما جئت كان من اللطائف أن أحد مشايخي حضر المناقشة -كعادة كثير من المشايخ مع طلابهم لتشجيعهم والوقوف بجانبهم- فقال لي: يا محمد: أين مشرفك؟ فأشرت إلى الشيخ محمد ولد سيدي، فتعجب وقال: والله ما ظننته إلا حاملاً يحمل لك نسخ البحث!! وإنما ظن الشيخ ذلك لما ذكرته آنفًا من أن الشيخ كان على غاية من التخفف من الدنيا والبعد عن التكَلف في لباسه وفي سائر شؤونه، وأصارحكم القول بأن هذه الطريقة هي المحببة إلى قلبي، القريبة من نفسي، فلا أحب التكلف لأي شيء في حياتي من مسكن أو ملبس أو طعام، لكنني لا أصل في ذلك إلى درجة الشيخ وطريقة أهل بلاده فقد أصابني من المدنية شر غير قليل.

هذا وقد ناقشني في الرسالة -وكانت سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م- فضيلة شيخي الدكتور سليمان الصادق البيرة، وهو ممن ذكرته آنفًا، وفضيلة الشيخ المصري محمود سيبويه بدوي من الجامعة الإسلامية من المدينة النبوية المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان الشيخ - رحمه الله تعالى- على غاية من الأدب واللطف والتواضع، وهو في الوقت نفسه علم من أعلام الدراسات القرآنية، وعالم متمكن، ومرت المناقشة بسلام بل كانت جلسة علمية رائعة فالحمد لله رب العالمين.

- مرحلة الدكتوراه:

بعد فراغي من الماجستير تقدمت إلى الجامعة بطلب إلحاقي ببرنامج الدكتوراه، وضُرب لي موعد للمقابلة الشخصية، فجئت وفوجئت بوجود شيخ

واحد فقط، وهذا خلاف المعتاد؛ إذ كانت اللجنة التي عقدت لطلاب الماجستير فيها ثلاثة مشايخ، وكان الذي قابلني الدكتور الفاضل عبد الله الدميجي -حفظه الله تعالى- فسألني عدة أسئلة، وكانت المقابلة موجزة، ومما أذكره منها أن الشيخ سألني عن مسألة الحرف والصوت، وهي مسألة علمية عقدية شائكة متعلقة بكلام الله تعالى: هل هو بصوت وحروف أم هو كلام نفسي كما تقول المؤولة؟ فقلت إني لا أحب الخوض في هذه المسائل!! فعجب مني فسألني: لماذا.

فقلت له: إن السلف من الصحابة والتابعين والصدر الأول لم يكونوا يعرفون هذه المسائل ولا يرضون الحديث فيها بل كان شعارهم: أمِرّوها كما جاءت، وأنا أحب طريقتهم وأرتضيها وأراها في غاية من الحكمةَ والسلامة ليس بعدها غاية.

فقال لي: لكن هذه مسائل حدثت بعدهم وتكلم فيها من تكلم فلا بد من تحقيق القول فيها.

فقلت له: إني أعرف المسألة تمامًا، وأعرف مسألة الكلام النفسي الذي قال به المؤولة، وأستطيع أن أفصلها لك لو شئت لكني لا أحب هذه المسائل.

فسكت عني فلم يجبني، ولا أدري هل ارتضى كلامي أو لا؟ فهو من الرجال الذين لا يستطيع المرء قراءة وجوههم.

لكنه كان على غاية من الأدب واللطف والدماثة وحسن استقبال الطالب، فجزاه الله تعالى عني خيراً.

ثم ظهرت نتيجة المقابلة وهي النجاح ولله الحمد، وابتدأت مسيرة شهادة الدكتوراه سنة ١٤١٣/ ١٩٩٢.

ولما أردت اختيار موضوع للدكتوراه طلبت من شيخي الشيخ الدكتور سليمان الصادق البيرة أن يختار لي مشرفًا، فوعد خيراً، ثم بعد أيام أشار عليّ بالشيخ الفاضل العلاّمة الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد المصري الجنسية، ولم أكن أعرفه فتوجست منه خيفة وقلقًا، فقال لي الشيخ سليمان كلامًا حاصله أن هذا الشيخ شيء مختلف عمن عهدتهم أو سمعت بهم، فلما قابلته في غرفة الإشراف وجدت عزة شامخة، وقوة راسخة، على علو في السن، وكان الشيخ -لأصوله التركية- مهيب الطلعة، وسيمًا قسيمًا، فلما وضعت الخطة بمساعدته وجدته بحراً في العلم، يختلف عمن درسوني في الجامعة أو قابلتهم من المشايخ في حياتي، فقد درس الشيخ في الأزهر على نظامه القديم الصارم المتعدد التخصصات، العميق التناول للعلوم، وبقيت معه في الإشراف أربع سنوات كانت أجمل سنوات الطلب في حياتي كلها؛ إذ إن الشيخ أنس بي على مرور الأيام، وكان يُسر إليَّ من أحاديثه الجليلة وأخباره المنيفة وذكرياته الرائعة المصحوبة بسعة الاطلاع وعظيم المعرفة ما لم يكن لي به عهد من قبل، وكان يسمح لي بزيارته في بيته ومناقشته في كثير من قضايا العلم والدعوة، وقد أمضى عشر سنوات من حياته في سجن العبد الخاسر «عبدالناصر»، وعُذب ونُكل به بأنواع من النكال، وأوذي في الله، وصبر صبراً جميلاً، ولم يظفر منه أعداؤه بشيء من التفريط في مبادئه أو التهاون بأمر دينه بل كان جبلاً شامخًا، ولي معه حديث طويل سأذكره في مكان آخر إن شاء الله تعالى.

وكان الشيخ أثناء الإشراف يقرأ ما أكتبه قراءة فاحصة، ويُعَلم على ما يريد مني إصلاحه أو التعريج عليه مرة أخرى لغرض ما بالقلم الأحمر، ويناقشني في أدق الدقائق حتى في علامات الترقيم من فاصلة وغيرها، وفي أسلوب

الكتابة فيصلح لي السياق الركيك، والأسلوب الضعيف، ويدلني على المراجع، وقد كان بحث الدكتوراه بعنوان «معترك الأقران في إعجاز القرآن: دراسة نقدية مقارنة»، والكتاب للحافظ السيوطي وهو ثلاثة مجلدات ضخمة، مطبوع ومحقق تحقيقًا لا بأس به، والغريب أني كنت قد طلبت من الجامعة تحقيق الكتاب ودراسته لكنهم رفضوا واكتفوا بالدراسة النقدية المقارنة، وهذا مما خفف علي جدًا، وجعل همي منصبًا على الدراسة النقدية فاستفدت من ذلك، وكان الشيخ لا يخضع لتقليد، ولا يؤسر بهيبة المشايخ ممن سلفوا، فكان لذلك ناقدًا لكل ما أورده عن كل أحد، مع حرصه التام على استعمال الأدب مع العلماء ومراعاة مقاماتهم.

وسأذكر بالتفصيل -إن شاء الله تعالى- أحداثًا دقيقة عشتها معه في مكان آخر، إن فسح الله، سبحانه وتعالى، لي في المدة، ومدّ لي في الأجل.

لكنني لا أنسى – إن نسيت- أني رأيته مرة خارج غرفة الإشراف، وكان الأستاذ الكبير الداعية محمد قطب مارًا في الدهليز «الممر» فانحنى الشيخ – على جلالته وعلو سنه ورفعة قدره- ليقبل يد الأستاذ محمد قطب، فعظم قدر الشيخ في نفسي، وارتفع عندي ارتفاعًا لا مزيد عليه، حفظه الله تعالى ونفع به، وأنا إلى يومي هذا بعد أكثر من عشرين سنة من لقائي به أزوره في بيته في مدينة نصر في القاهرة، وأصلي معه في مسجده، وأستشيره في مسائل كثيرة علمية ودعوية[1]، ولا أذكر -والله- أني سألته مرة عن شيء إلا وأسعفني وأسعدني بإجابة شاملة شافية، فجزاه الله عني خيرًا.

(١) هذا كان قبل الانقلاب العسكري المشؤوم في مصر الذي حرمني من رؤية شيخي الجليل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأذكر موقفًا واحدًا الآن مناسبًا للسياق، فقد شرفني مرة بالزيارة في منزلي وكان ذلك في شهر شعبان يوم خميس، فقلت له: يا سيدي، غدًا الجمعة فعماذا أخطب؟ فقال سريعًا: اخطب عن تغيير القبلة، وكانت قد غُيرت في شعبان من السنة الثانية.

فقلت له: يا سيدي: وهل هذا موضوع يصلح للخطبة في مسجد يؤمه عوام الناس؟

فضحك وقال: اقرأ تفسير آيات تغيير القبلة في كتاب «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب، فلما رجعت إليها في الظلال سالت دموعي - والله- لتأثري بكيفية تناول الأستاذ سيد للموضوع مما هو صالح كل الصلاح لعوام الناس وخواصهم، وكان جملة ما قاله الأستاذ - وهو طويل متشعب كعادته في إيراد أكثر ما يورده- أنه قال: إن الله - تعالى- لم يرضَ من المسلمين أن يستمروا في اتباع قبلة ارتضاها لهم ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا لأنها كانت قبلة أهل الكتاب، وكان الله يريد للمسلمين ألا يتشبهوا بهم بشيء ولو كان ذلك في شأن القبلة، فإذا أراد الله من المسلمين ذلك أفيرضى منهم أن يتبعوا أهل الكتاب في شأن من شؤونهم أو حال من أحوالهم في العقائد والعبادات والتصورات والسلوك. . . إلى آخر ما ساقه وكان عجيبًا حقًا.

- والشيخ في القرآن وعلومه بحر لا يجارى ولا يبارى، وهو مشارك بقوة في أنواع أخرى من العلوم، وهو علم من أعلام الدعاة في عالمنا الإسلامي اليوم، حفظه الله تعالى ومتعنا بحياته.

ولما حان وقت المناقشة في المحرم من سنة ١٤١٧/ ١٩٩٦ ناقشني فضيلة

الشيخ الدكتور عبدالحي الفرماوي المصري الجنسية، والدكتور عُويِّد المطرفي - رحمه الله تعالى- وأذكر أن الشيخ الدكتور عبدالحي كان في غاية من الأدب واللطف، وكان واسع العلم بما يناقشني فيه، ولا أنسى أيضًا ظرف الشيخ عويد، ومرّت المناقشة بسلام، ولله الحمد والمنة، ومن أراد الاطلاع على تفصيل مناقشة الماجستير والدكتوراه فإني سأنزلهما في موقعي «التاريخ» قريبًا إن شاء الله تعالى، فقد احتفظت بالتسجيل في أشرطة أخذتها من الجامعة، ولله الحمد والمنة.

وكانت النتيجة في الماجستير الامتياز والتوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة، وقد كان ذلك.

وفي الدكتوراه وكانت النتيجة مماثلة، ولله الحمد والمنة سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

●●●

المبحث الخامس:

طلب العلم على المشايخ

قد طلبت العلم على جملة من المشايخ الكرام، رحم الله -تعالى- من مات منهم وحفظ من بقي، هذا وقد ذكرت بعضهم فيما مضى لمناسبة السياق هنالك، فقد كان الحديث فى بداية طلبي للعلم، وهأنذا أكمل عقدهم النظيم ودرهم النضيد:

١ - فضيلة الشيخ محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي:

وقد مرّ ذكره آنفًا، وقد قرأت عليه في بيته عدة كتب، وهو ممن لا يرد طلب طالب، وممن لم يقل لي لا قط في شيء سألته فيه، فقرأت عليه «شذا العَرْف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحَمَلاوي[١]، والصرف علم جيد يضبط اللسان لولا تكلفات عجيبة في بعض الاشتقاقات والتصريفات والأوزان.

وقرأت عليه كتاب «قطر الندى وبَلّ الصدى» في النحو لابن هشام المصري المشهور[٢]، وهو كتاب جيد فيه قوة ووجازة، ويصلح لطلاب العلم.

وقرأت عليه كتابًا في أصول الفقه، وهو «نشر الورود على مراقي السعود» للشيخ الإمام محمد الأمين الشنقيطي[٣] -رحمه الله تعالى- والمراقي متن

---

(١) أحمد بن محمد الحملاوي، مدرس مصري، ولد سنة ١٢٧٣/ ١٨٥٦ بمصر. تخرج في دار العلوم ثم في الأزهر. واشتغل مدة بالمحاماة. له تصانيف في اللغة والسيرة والمناهج الدراسية. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م. انظر «الأعلام»: / ٢٥١١.

(٢) جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله. ولد سنة ٧٠٨ بمصر، وتفقه للشافعي ثم تحنبل، وأتقن العربية ففاق فيها الأقران بل الشيوخ، وتخرج به جماعة من أهل مصر. انفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط. توفي سنة ٧٦١ بمصر. انظر «الدرر الكامنة»: ٢ / ٤١٧- ٤١٨. وكتابه هذا مطبوع مشهور متداول.

(٣) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني نسبة إلى يعقوب الجكني الشنقيطي. ولد سنة ١٣٢٥/ ١٩٠٥م في موريتانيا ودرس على عدد من مشايخها هنالك، ثم انتقل في رحلة برية=

مشهور للشيخ عبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي [1] وكان الشيخ محمد ولد سيدي قد حقق الكتاب وأكمل شرح قطعة منه لم يأت الشيخ الأمين على شرحها، فقرأته عليه كله، واللطيف أنه لما وصلنا إلى قسم القياس من الكتاب قال لي: يا محمد: لا تسألني ولا سؤالاً واحداً في هذا القسم لأني لا أحسنه!! فجزاه الله خيراً على صراحته واعترافه بالحق، وقد أكبرت هذا منه.

هذا ما قرأته عليه -حفظه الله تعالى- أما ما ناقشته فيه من مسائل علمية فهو كثير، ومن ذلك مسألة وقوع المجاز في القرآن، فقد قلت له: كيف ينفي بعض المشايخ وقوع المجاز في القرآن والمجاز أسلوب عربي ولع باستخدامه العرب في أشعارهم ونثرهم، وذلت ألسنتهم به قبل نزول القرآن العظيم، فلما نزل نزل عربيًا محضًا على طرائق العرب ونهجهم في كلامهم، فوافقني -حفظه الله تعالى- وتعجب من كتاب الشيخ الشنقيطي الذي نفي فيه المجاز عن كتاب الله تعالى؛ وتعجب من هذا الرأي الذي يخرج من عالم ضليع متمكن في اللغة تمكنًا معلومًا عند العلماء وطلبة العلم.

وبهذه المناسبة كنت قديمًا قد حضرت دورة في جدة لشيخ من كبار علماء أهل

= إلى المملكة فدرّس في الرياض ثم انتقل إلى المدينة النبوية المنورة فمكث فيها مدرسًا في الجامعة الإسلامية والحرم النبوي الشريف إلى أن وافته المنية سنة / ١٣٩٣/ ١٩٧٣م، رحمه الله تعالى، وهو من فطاحل العلماء خاصة في علوم العربية والأصول والتفسير. له عدة مصنفات. انظر ترجمة مستقلة له في كتاب «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» لـ د. عبدالرحمن السديس.

(١) هو العلامة عبد الله بن ابراهيم بن عبد الرحمن، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. العالم العلامة الأصولي الفقيه المؤرخ اللغوي صاحب التآليف النافعة.

أخذ عن علماء كثر، وأخذ عنه طلاب كثيرون، وله عدة تصانيف. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٢٣٣هـ. انظر ترجمته على شبكة الإنترنت، و«الأعلام»: ٤/ ٦٥ وقد جعل وفاته سنة ١٢٣٥هـ.

نجد، وقد كان عضواً في «اللجنة الدائمة للإفتاء»، فأوصلته مرة إلى مقر إقامته، وقلت له فيما قلت: كيف يمكن أن ننكر وقوع المجاز في كتاب الله تعالى، وكتاب الله - تعالى - عربي مبين؟ وغاية ما ينبغي أن نصنعه أن ننفي المجاز عن الصفات الإلهية الواردة في كتاب الله تعالى ونثبته فيما سوى ذلك.

فما راعني منه إلا أن قال لي: أنا أقول بالمجاز وبوقوعه في كتاب الله تعالى لكني أقرر في تدريسي عدم وقوعه في القرآن خوفًا من إنكار المشايخ عليَّ، يقول هذا وهو أحد كبار العلماء -رحمه الله تعالى- فماذا يقول سائر المشايخ؟!

٢- فضيلة الدكتور ناجي عجم، رحمه الله تعالى:

وهو شاميّ من حلب، دمث الخلق، رضيّ الطباع، على طريقة أكثر أهل بلاده من التأنق والتنظف والتجمل، وكان عضواً في المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي وأستاذًا في قسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة. درست على يديه علم الفرائض بالاشتراك مع الطلاب في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وقد وقرأت عليه في بيته بعضًا من كتاب في الفقه الحنبلي لا أذكر اسمه الآن، وكان معي في القراءة فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الحمدان -شفاه الله تعالى- وهو مدير مركز الدعوة في جدة سابقًا، وسألته في مسائل علمية كثيرة على انفراد، جريًا على ما ارتضيته في طلب العلم من قراءة للكتب وسؤال المشايخ عن معضلاتها، فقد وقر في صدري أن أكثر المشايخ لا وقت لديهم لإقراء الطلاب الكتب الكبيرة، فكنت أسأله عما لا أعرفه أو لا أفهمه مما أقرأه أو أسمعه، وكنت أسأله عن أحوال بلاده ومسائل في الدعوة فقد كان الشيخ من مقدمي جماعة الإخوان المسلمين.

وقد صحبته في إحدى حملات الحج فلم أرَ منه إلا خيراً، رحمه الله تعالى، وغفر له، ورفع درجته في عليين.

وقد تبرع لي أهله بعد وفاته -جزاهم الله خيراً- بمكتبته، فوُضعت في تسعين حاوية «كرتونًا» وجعلتها وقفًا لمكتبة جامعة إسلامية في نيجيريا هي جامعة الحكمة في مدينة إيلورين، فالحمد لله رب العالمين.

هذا وقد ولد الشيخ سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤٢م، وتوفي سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م رحمه الله تعالى.

٣- خالي الأستاذ الأديب اللغوي العَروضيّ سمير الشاعر، حفظه الله تعالى:

وهو خالي بالرضاع وابن خالتي، وقد أضرّ في شبابه على إثر سقوطه من سلم بيته، وهو شديد الذكاء، سريع الفهم، قويّ العارضة، وقد أخذت عنه علم العَروض، وهو علم يُعنى بأوزان الشعر «البحور» وضبط الشعر العربي، وكان آخذًا بناصية هذا العلم بارعًا فيه، وكنت قد أخذت على الشيخ الدكتور أيمن سويد بعض مبادئ هذا العلم أثناء قراءتي عليه كتاب «المقدمة الجزرية»، كما مرّ من قبل في هذه الرسالة.

لكنني لم أتعلق بهذا العلم ولا أراه مناسبًا لي، فأنا لست بشاعر ولا ناظم، ولا أرى حاجة لمثلي أن يتوسع في هذا العلم، ويكفي ما عرفته منه.

٤- فضيلة الشيخ الدكتور سليمان الأهدل، اليمني الجنسية، حفظه الله تعالى:

وهو أحد مقدمي علماء اليمن، ورئيس الهيئة القضائية في التجمع اليمني للإصلاح، وقد قرأت عليه صحيحي البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- وأخذت منه الإجازة بهما، وباحثته في مسائلَ علمية ودعوية، وهو شيخ رضي

الخلق، لطيف الطبع، حسن الملقى، دَمِث، على عادة أكثر التهاميين، فهو من تهامة اليمن من زبيد، وهي مدينة العلم والعلماء في اليمن، وقد قرأت عليه في زبيد وفي صنعاء.

وما أصعب المكث في زبيد على شخص مثلي رُفِّه طويلاً واعتاد الإقامة ثلاثين سنة في أرقى فنادق العالم، وزبيد ذات مناخ صعب وهواء حار في الصيف وكان ذلك وقت قراءتي عليه، ولم يكن في بيت الشيخ مكيف وكان ذلك في رمضان، والبلد فقير والأحوال صعبة، والفندق الذي أقيم فيه كسير جريح!! وكان معي زوجي أم الحسين وابنها الحسين، والأحوال لم تكن مواتيةً للقراءة لكن لم يكن بد من القراءة عليه.

فقرأت عليه ثلث صحيح الإمام البخاري في ثمانية أيام، وكنت آتيه مرتين: في الصباح، وبعد الإفطار، وكان يأخذني معه إلى صلاة التراويح، وهو إمام مصلّى بجوار بيته، فكان يقرأ القراءة السريعة التي عليها أهل بلاده، الخالية من التجويد والترتيل، وهذا منه عجيب على علو كعبه في العلم لكن هي العوائد التي يصعب مخالفتها، وطرائق الناس التي يجبر اعتيادهم عليها المشايخ على سلوكها.

فلما قرأت عليه في صنعاء في بيته الثاني فيها كان ذلك كمن انتقل من قرية في البادية إلى مدينة ضخمة مرفهة، على ما في صنعاء من ضعف وسوء حال بسبب المجرمين من حكامها الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

وقد كان الشيخ أثناء القراءة في الصحيح يقف بي على بعض المواضع في الأحاديث، ويبين رأيه فيها، ويناقشني في بعض المسائل، وأذكر أنه كان شديد الإعجاب بالشيخ المصري محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- وبكتبه، ويرجح عددًا من آرائه العلمية على آراء من سواه.

وقد كان الشيخ مولعًا بتخزين القات ويراه حلالاً جريًا على سنن أكثر علماء أهل اليمن قديمًا وحديثًا، ولما كنا في شهر رمضان والحر شديد فقد كان يثقل عليّ وعليه القراءة في النهار، أما في الليل فقد كان يرتاح إلى القراءة، ويميل إليها لمساعدة القات له، والقات بلية عظمى ابتُلي بها أهل اليمن لكن أكثر علماء اليمن على حله، والله المستعان.

وقد ابتلي الآن بالخروج من بلاده فهو في مكة بعيدًا عن أهله في زبيد، وذلك بسبب أحوال اليمن الآن وابتلاء الناس بالاحتلال الحوثي الرافضي المدعوم من إيران، عجل الله تعالى بالفرج.

وقد زرته في بيته في مكة المكرمة فطلب مني مرارًا -لحسن خلقه وتواضعه- أن يُقرئني كتبًا في الفرائض وأنواع العلوم لكني لا أجد لذلك وقتًا الآن، فما أحسن أيام الطلب الأولى والتفرغ لها، فليغتنم طالب العلم أيام شبابه، وخمول ذكره، وقلة حاجة الناس إليه، وبعده عن التصدر، وقلة همومه ومشكلاته، وأحواله الصحية مساعدة، وعنده من الفراغ وراحة البال ما يسعفه ويسعده، أما إذا عُرف وتصدر، واشتهر ذكره وطُلب، وتراكمت عليه الهموم والمشكلات، وتنازعته أشغال مشغلات، ونزلت به قوارع قاطعات فأنى له طلب العلم، وما أصدق الفاروق القائل «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا، فإذا سُوِّدتم فلا سبيل إلى الفقه» فما هنالك شيء أحب إليّ من القراءة على الشيخ فكيف إذا كان هو السائل لي والطالب مني هذا، فواسوأتاه وواخجلاه منه، لكن لا أجد لهذا فراغًا، والله المستعان.

٥- فضيلة الشيخ عبد الله بن بيّة الشنقيطي:

وهو شيخ مشهور، ونائب رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين[(١)]، ويدّرس في جامعة الملك عبدالعزيز منذ سنين طويلة في كلية الآداب قسم الدراسات الإسلامية، وقد كنت آتيه لأحلّ عليه بعض عبارات الشيخ الطاهر بن عاشور[(٢)]-رحمه الله تعالى- في كتابه الجليل «التحرير والتنوير» وبعض المصطلحات التي يوردها، وأناقشه في مسائل أخرى، غير التي في «التحرير والتنوير»، فكنت أجده بحراً، حاضر الذهن، لا يحتاج لكثير تفكير ليجيب، فكأنما المسائل التي ألقيها عليه ماثلة في ذهنه قد أعدّ أجوبتها من قبل، وكانت تلك المسائل في البلاغة خاصة وفي بعض مسائل اللغة والأصول وغير ذلك، وكنت أسأله -أيضًا- في مسائل عقدية وسلوكية تؤرقني، وهو هادئ الطبع، قليل التكلف، جاريًا في ذلك على طبائع أهل بلده.

والشيخ ابتلي في الآونة الأخيرة بأمور أرجو أن يبصره الله -تعالى- بحقيقتها قبل فوات الأوان؛ فهو من مشايخي الذين أرجو لهم الخير والرشاد والتوفيق.

٦- فضيلة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، رحمه الله تعالى:

والأعظمي نسبة إلى بلدة «أعظم جَرا» في الهند، وتنطق كلمة «جرا» بالجيم المصرية، وقد ارتحلت إليه في رحلة صعبة مع فضيلة شيخي الشيخ د. أيمن سويد -حفظه الله تعالى- وذلك سنة ١٤٠٧/ ١٩٨٧، وقرأت عليه صدراً من

---

(١) كان ذلك قبل استقالته من الاتحاد.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. وُلِدَ سنة ١٢٩٦ بتونس. عين عام ١٩٣٢م شيخًا للإسلام مالكيًا، وهو من أعضاء المجمعين العَربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة متداولة ومقالات كثيرة في المجلات. توفي بتونس سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م رحمه الله تعالى. انظر: «الأعلام»: ٦/ ١٧٤.

صحيح البخاري بسماعي قراءة شيخي أيمن عليه ربما ثلاثون صفحة، وعُدت أدراجي إذ لم أستطع أن أكمل القراءة؛ وذلك لأحوال البلدة الصعبة، وقد بينت ذلك في القسم الأول من الذكريات بعنوان: رحلاتي، في قسم: أيام في الهند، فلا أُعيد ذكر ذلك هاهنا، وقرأت عليه وعلى ولده في جدة بسماعي قراءة شيخي أيمن عليهما، وكان ذلك قدراً قليلاً أيضًا؛ وذلك لانشغالي آنذاك بالوظيفة وبالطلب في الجامعة، وبأعمال أخرى، وقرأت عليه أوائل بعض الكتب الأخرى الحديثية مما لا أذكره الآن لبعدي عن مكتبتي.

والشيخ على طريقة أهل بلاده في نفي التكلف في كل شيء، فقد كان يقرئنا الصحيح وهو متمدد يأكل ما يسميه أهل بلاده «التمبول»، وهو ورق شجر خاص يوضع فيه بهارات خاصة ويُمضغ، حتى يسيل من الفم سائل أحمر، يخرجه بين الفينة والأخرى في وعاء قريب منه، وكان الشيخ لا يرى في هذا شيئًا على عادة أهل بلاده، رحمه الله تعالى، لكننا لم نكن معتادين على رؤية مثل هذا وكان يطول مني العجب لذلك الصنيع، لكنها عادات الأمم والشعوب مَن جهلها عجب منها، ومن اعتادها رآها شيئًا لا بأس فيه بل قد يستحبها ويأمر بها غيره من أهل الأمم الأخرى، فسبحان الله العظيم.

والشيخ عالي الكعب في علم الحديث له فيه مصنفات وكتب حققها وعُني بها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

هذا وقد ولد الشيخ سنة ١٣١٩/ ١٩٠١، وتوفي بعد أن عُمِّر -رحمه الله تعالى- سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧- الشيخ الدكتور أيمن سويد، حفظه الله تعالى:

وهو شيخي الذي لازمته طويلاً، وقرأت عليه كثيراً، وقد بينت استفادتي منه في مبحث سابق، لكنني أبين هنا ما قرأته عليه، فقد قرأت عليه «المقدمة الجزرية» للحافظ ابن الجزري وشرحها لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، رحمهما الله تعالى.

وقرأت عليه منظومة «صريح النص في الكلمات المختلف فيها عن حفص» وهي نظم لكتاب الشيخ علي الضبّاع شيخ مقارئ الديار المصرية [1]، ونظمها شيخه الشيخ عبدالعزيز عيون السود الحمصي في ٤٥ بيتًا [2]، وهي منظومة غريبة سيأتي ذكرها في المبحث السادس، إن شاء الله تعالى.

قرأت عليه القرآن العظيم كله برواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية.

ثم قرأت عليه القرآن العظيم كله برواية حفص عن عاصم من طريق «طيبة النشر» وهي منظومة ألفية للإمام ابن الجزري، رحمه الله تعالى.

وقرأت عليه القراءات العشر الصغرى بما ذلك في ذلك متن الشاطبية ومتن الدرّة، وشرح لي كثيراً من غوامض المتنين.

---

(١) علي بن محمد بن حسن الضباع. شيخ المقارئ المصرية. له عدة تصانيف. توفي سنة ١٣٨٠/ ١٩٦١، رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٥/ ٢٠ وفيه تلقيبه: الصباغ، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

(٢) هو عبد العزيز بن محمد علي بن عبد الغني عيون السود، الحمصي الحنفي. ولد سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩٦١. وهو عالم بالقراءات والفقه الحنفي وكان أمين الإفتاء في حمص. له عدة تلاميذ وتصانيف. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٩٩/ ١٩٧٩ بحمص ودفن فيها. انظر «ذيل الأعلام» لـ أحمد العلاونة: ١/ ١٢٣-١٢٤.

ومن اللطائف أن قراءاتي عليه استمرت قرابة ثلاثين سنة من سنة ١٤٠٢ إلى سنة ١٤٣١، أما القراءات العشر فقد استمرت قراءتي عليه بها سبعًا وعشرين سنة، وهي مدة طويلة جدًا، وإنما كان ذلك لانشغال الشيخ بأحداث وأمور عديدة ولانشغالي أيضًا بأمور وأحداث وأحوال طرأت عليّ.

وقرأت عليه منظومة «جمال القراء وكمال الإقراء» للإمام محمد بن عبد الصمد السخاوي[1] وشرح لي غامضها، حفظه الله تعالى.

وقرأت عليه قسمًا كبيرًا من صحيح البخاري بقراءتي، وبقراءة جماعة من حفاظ القرآن، في مجلس الحُفاظ الذي كان يعقده الشيخ سنين طويلة، وقد ذكرت تفصيل ذلك المجلس في كتابي: «المرجعية الشرعية لطلاب العلم: أهل القرآن نموذجًا».

وقرأت عليه في ذلك المجلس كتبًا عديدة منها: «التبيان في آداب حملة القرآن» للإمام النووي[2].

---

(١) هو العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد الهمداني المقرئ النحوي الشافعي شيخ القراء بدمشق.
كان إمامًا علامة مقرئًا محققًا مجودًا بصيرًا بالقراءات وعللها، إمامًا في النحو واللغة والتفسير، وله معرفة تامة بالفقه والأصول، وكان يفتي على مذهب الشافعي.
ولد سنة ٥٥٨ في سخا بلدة بمصر، وتوفي -رحمه الله تعالى- سنة ٦٤٣ بدمشق، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٢٢.

(٢) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألف مصنفات نافعة جدًا. توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات» ٤/ ٢٦٤-٢٦٨.

وكتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم» لبرهان الدين الزرنوجي[1]، وهو كتاب في آداب طالب العلم.

وقرأت عليه قسمًا كبيرًا من كتاب كبير ضخم في التجويد لأحد المشايخ المصريين المقيمين في المدينة النبوية المنورة لا أتذكره الآن، وربما يكون لقبه: المرصفي.

وقرأت عليه في ذلك المجلس غير ذلك مما لا أذكره الآن، فقد كان ذلك منذ ربع قرن بل أكثر.

وقرأت عليه بعض الأحاديث المسلسلة وأجازني بها منها الحديث المسلسل بالأولية، والحديث المسلسل بالمصافحة، وغير ذلك.

وللحديث المفصل في شأن الشيخ وأمره مكان غير هذا.

٨- فضيلة الشيخ الدكتور عوض القرني، حفظه الله تعالى:

وقد أفهمني كثيرًا مما غمض عليّ من مسائل أصول الفقه أثناء دراستي في كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، وقد كنت آنذاك أنزل في ضيافته بمنزله، جزاه الله تعالى خيرًا، وقد سألته في مسائل أخرى شرعية ودعوية، وجرى بيننا كلام طويل في تلك المسائل، حفظه الله تعالى ونفع به.

●●●

(١) المتوفى عام ٥٩١ هـ، وهو أحد فقهاء الحنفية وتتلمذ على يد المرغيناني الحنفي صاحب كتاب الهداية، وهو من بلدة تسمى زرنوج وهي من بلاد الترك وراء أوزجند، وهي من بلاد أوزبكستان اليوم. اشتهر بكتابه المسمى: «تعليم المتعلم طريق التعلم»، انظر «معجم المؤلفين»: ٣/ ٤٣، و«كشف الظنون»: ١/ ٤٥.

المبحث السادس:

مشايخ معاصرون تتلمذت على فتاواهم وكتبهم

هنالك مشايخ عديدون لم أحظَ بلقائهم أو لقيتهم، لكن لم آخذ عنهم وذلك لبعدهم عني، فلم يتيسر لي طلب العلم على أيديهم، لكني سمعت لهم دروسًا وفتاوى وقرأت لهم كتبًا من كتبهم، فكانت تلك تلمذتي عليهم، وأعد ذلك سائغًا بشرطين:

١- أن يكون طالب العلم قد حَصّل قدراً لا بأس به من العلم الشرعي؛ إذ لا يسوغ للمبتدئ طلب العلم عن طريق الأشرطة والكتب؛ فقد يضل فهمه وهو يظن أنه مصيب.

٢- أن يعرف الأصول العقدية والفقهية للشيخ، والقواعد والضوابط التي يأخذ بها ويتكئ عليها، فإن من جهل ذلك فسيخبط خبط عشواء حال طلبه للعلم من أشرطة الشيخ وكتبه.

ثم إن من حقق ذينك الشرطين ساغ له أن يقول: طلبت العلم على الشيخ فلان والعالم فلان.

فمن المشايخ الذين لم أحظَ بطلب العلم على أيديهم في حلَق العلم لكني سمعت من دروسهم وفتاواهم قدراً وافراً، وقرأت من كتبهم كثيراً:

١- الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- وقد بينت رأيي في الشيخ في رسالة بعنوان: «الشيخ عبد العزيز بن باز.. مثقفًا ومفكراً»، لكن خلاصة رأيي أنه لم تنجب نجد في مجموع صفاته مثله في العصر الحديث، وهو

أحد القلائل المبرزين من علماء العالم الإسلامي، وهو أمة وحده في مفزع الناس إليه عامهم وخاصهم، رحمه الله تعالى.

٢- الشيخ محمد ابن عثيمين: وهو واسع الدائرة في العلم، بل أعده أعلم علماء الديار النجدية وأحد كبار علماء العالم الإسلامي -على غرابة في بعض فتاواه- وقد التف طلبة العلم عليه في بلادنا واحتفوا به وتداولوا فتاواه واعتمدوها، كما لم يصنعوا بشيخ آخر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٣- الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: وقد قرأت كثيرًا من كتبه الشرعية، واطلعت على فتاوى كثيرة له، وهو عالم واسع العلم، جريء مقدام، صادع بالحق كثيراً، فقيه متمكن من ناحية الفقه، غواص على دقائقه وتفصيلاته، لكنه - في بعض الأحيان -في سبيل دعوته إلى التيسير على المسلمين انتزع أقوالاً لبعض السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ليست هي المعتمدة في الفتوى عند جمهور المسلمين، ومن ثَم بنى عليها أحكامًا في فتاواه جاءت مصادمة للمعلوم الشائع، والله تعالى أعلم.

والشيخ يصلح أن يلقب بشيخ الصحوة الإسلامية، فقد التف عليه جماهير المسلمين من العرب ومن كثير من غيرهم في قارات الدنيا الست، وأقبلوا على كتبه وفتاواه، وصار هو المرجع المعتمد عندهم منذ سنوات طويلات.

٤- الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: وهو محدث شهير، صاحب صولات وجولات، وقد صنف كتبًا كثيرة، قرأت منها، وسمعت له فتاوى كثيرة، وقد كان له أثر كبير على شباب الصحوة الإسلامية، وكان طلبة العلم

في مسقط رأسي جدة - زمن الصحوة الأول- خاضعين لفتاواه، مؤثرين لها، ويقدمونها على فتاوى غيره.

والحق أنه ضليع في علم الحديث، له فيه القدح المعلى، ويرجع العلماء وطلبة العلم إليه فيه ويصدرون عن رأيه، لكنه في الفقه مزجي البضاعة، خالفت كثير من فتاواه السائد المعلوم من الفتاوى، وراجعه علماء ومشايخ لكنه أصر على رأيه، ولكل وجهة هو موليها، لكن الفقه ليس فنه، ولو بقي على الحديث لكانت كلمة العلماء مجمعة عليه.

- هؤلاء الأربعة هم أبرز المشايخ الذين تتلمذت على موائد علمهم، وقرأت كتبًا كثيرة لهم، وسمعت كثيراً من دروسهم وفتاواهم، وهناك مشايخ غيرهم قرأت لهم وتأثرت بهم، لكن أولئك أبرزهم وأكثرهم أثرًا في مسيرتي العلمية.

علماء قدامى أثروا في مسيرتي العلمية

هناك علماء كُثر قرأت لهم كثيراً، لكن أبرز من تأثرت بهم وتتلمذت على كتبهم:

١- شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، رحمه الله تعالى.

٢- الإمام ابن قيم الجوزية:

وهما اللذان تَسيدا ساحة بلادي الشرعية من العلماء، وكانت كتبهم منثورة في كل مكان، فلا عجب إذن أن يكونا أكثر من قرأت لهما، وأكثر من أثرا في مسيرتي العلمية الشرعية، لكنني أميل إلى ابن القيم أكثر لحلاوة عباراته

وسهولتها، وتناوله الرقائق على وجه لم يكن لشيخه، رحمة الله تعالى عليهما فقد كانا من سادة العصر الوسيط.

٣- الإمام ابن حجر العسقلاني: وقد قرأت من مصنفاته كثيرًا، وأعجبت بعلمه الواسع في الحديث النبوي خاصة، رحمه الله تعالى، وهو مدرسة مستقلة لم يأتِ في علوم الحديث قبله ولا بعده مثله، والله أعلم.

٤- الإمام السيوطي: وقد قرأت له كثيرًا، واطلعت على جملة واسعة من فتاواه، ولا آسي على شيء من أحوال المشايخ المتوسطين زمانًا كما آسي على المعارك التي كانت بينه وبين علماء عصره، فقد حصلت فيها جملة من الأمور ما كان ينبغي أن تحدث بين أهل العلم، ولا تليق بهم، لكن الكمال عزيز، رحمة الله عليهم جميعًا.

٥- الإمام الذهبي: وهو ذهب العصر لغة ومعنى، كما قال تاج الدين السبكي، وهو المحدث، الحافظ المؤرخ، وهو المنصف الذي لم أطلع على مماثل له في إنصافه، وهو الناقد التاريخي الأجل الأكبر بعد ابن خلدون، وإن كان قد انفرد عن ابن خلدون بمعرفة أحوال السلف والخلف ونقدها على وجه لم يتيسر لأحد من قبله ولا من بعده، والمطلع على مصنفاته يعلم هذا، وقد استفدت من علمه ونقده للعلماء ومناهج العلوم كثيرًا، رحمه الله تعالى.

●●●

المبحث السابع:

حفظ المنظومات العلمية

حُبب إليَّ حفظ المنظومات لما لقيت الشيخ الدكتور المقرئ أيمن سويد، حفظه الله تعالى؛ إذ إن طالب علم القراءات لا بد له من حفظ المنظومات، فحفظت «المقدمة الجزرية» للحافظ ابن الجزري، وهي في التجويد وعدد أبياتها ١٠٧ أبيات، وهي من بحر الرجز، سهلة نوعًا ما مقارنة بمنظومات القراءات.

وحفظت منظومة لشيخ الشيخ أيمن الشيخ عبدالعزيز عيون السود -رحمه الله تعالى- وعدد أبياتها ٤٥ بيتًا نظم فيها الشيخ كتاب «صريح النص في الكلمات المختلف فيها عن حفص» للشيخ علي الضباع شيخ المقارئ المصرية، رحمه الله تعالى، وهي منظومة في غاية الغرابة والتعقيد اللفظي، ويكفي للدلالة على ذلك منها بيت يقول فيه الناظم:

ضُعْفَ افتحَ اتاسَلا اخْذ فرق فَذُمِ كادْرج صه الصا السينُ فيهم قَدَّمِ

وأكثرها على هذا النسق العجيب، لما يكثر فيها من حذف لبعض الأحرف واكتفاء ببعضها الآخر، وإشارات ورموز يُفهمها الناظم في شرحه على المنظومة، وقد قرأت المنظومة وشرحها على الشيخ أيمن، حفظه الله تعالى.

والعجيب أن الكتاب الذي هو أصل المنظومة وقع في ٤٥ صفحة فنظمها الشيخ عبد العزيز في ٤٥ بيتًا.

وحفظت المنظومة الشهيرة الجليلة المعروفة باسم الشاطبية، واسمها الذي سماها به الناظم الإمام الشاطبي[1] المقرئ «حرز الأماني ووجه التهاني»، وهي

(١) الشيخ الإمام العالم، القدوة، سيد القراء، أبو محمد القاسم بن فيره بن خلف الرُّعيني الأندلسي الشاطبي الضرير. ولد سنة ٥٣٨، وكان يتوقد ذكاء، له الباع الأطول في فن القراءات والرسم =

١١٧٣ بيتًا، ضمنها المصنف كثيرًا من المعاني الوعظية والإشارات الإيمانية، وهي غاية في القوة والجزالة والرصانة والسلاسة على ما عُهد من نظم الأندلسيين، نظم فيها المصنف كتاب التيسير للإمام أبي عمرو الداني [١] -رحمه الله تعالى- وزاد عليه زيادات، وقد لاقت هذه المنظومة، من القبول والذيوع والانتشار ما الله به عليم، وكان المصنف قد حملها إلى مكة وطاف بها حول الكعبة ألف أسبوع !! - والأسبوع سبعة أشواط - يرجو من الله تعالى، قبولها ونشرها، وما أرى إلا أن الله تعالى استجاب له سبحانه فنشرها في الأرض أيما نشر، وحفظها ملايين من الرجال والنساء، والمصنف ضرير البصر لكنه عظيم البصيرة، حاد الذكاء إلى الغاية، ومن اطلع على أسرار منظومته وعلى عظمة سيرته علم ذلك منه [٢].

وحفظت منظومة «طيبة النشر في القراءات العشر» للحافظ ابن الجزريّ، رحمه الله تعالى، وهي منظومة في قرابة ألف بيت سهلة سلسة وإن لم تكن في قوة الشاطبية وجزالتها ورصانتها وجمالها، لكن الله -تعالى- كتب لها القبول

= والنحو والحديث، وله النظم الرائق مع الورع والتقوى والتأله والوقار. استوطن مصر وتصدر وشاع ذكره وصبر على فقر شديد. توفي بمصر سنة ٥٩٠، وكان يتجنب فضول الكلام ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٦١ - ٢٦٤.

(١) الشيخ الإمام، الحافظ، المقرئ، عالم الأندلس عثمان بن سعيد بن عثمان الداني. ولد سنة ٣٧١، وأخذ عن علماء بلده ثم رحل إلى المشرق. كان مالكي المذهب، جيد الضبط، دينًا فاضلاً، مجاب الدعوة، بارعًا في القراءات والحديث والنحو والتفسير. مات سنة ٤٤٤ بـ (دانية) رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨ / ٧٧ - ٨٣.

(٢) قد هذبت - قديمًا - كتابًا نادرًا في سيرته ألفه الإمام القسطلاني - رحمه الله تعالى - واسمه «الفتح المواهبي في سيرة الإمام الشاطبي» ونشرته الهيئة العالمية للقرآن الكريم، وسأعيد طبعه قريبًا، إن شاء الله تعالى.

بل أخلص مصنفها بخالصة له من دون العالمين، وذلك بأن جعل ما في الطيبة فقط هو المقروء به إلى يوم القيامة، وجعل سلاسل علماء القراءات في الدنيا اليوم تنتهي جميعها إلى الحافظ ابن الجزري، فلا يُقرأ القرآن اليوم بالقراءات المتواترة العشرية إلا من طريقه، وهذا الحصر الجليل شبيه بما جعله الله -تعالى- للخليل إبراهيم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم- لما جعل الأنبياء كلهم من بعده من ذريته فقال سبحانه: ﴿ووهبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

وقال جل من قائل:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾(٢)، فما أحسن هذا وما أجمله.

وحفظت منظومة في التجويد للإمام محمد بن عبدالصمد السخاوي المتوفى في القرن السابع، وهو تلميذ الإمام الشاطبي وشارح منظومته، وهي منظومة لطيفة، اسمها: «جمال القراء وكمال الإقراء».

وحفظت منظومة «الدُّرّة المضيّة في القراءات الثلاث المرضية» للإمام الحافظ ابن الجزريّ - رحمه الله تعالى- وهي تضم القراءات الثلاث فوق السبع، أما القراء السبعة فهم: نافع قارئ المدينة، وعبدالله بن كثير قارئ مكة، وأبو عمرو البصري قارئ البصرة، وعبدالله بن عامر قارئ دمشق، وقراء الكوفة الثلاثة

(١) سورة العنكبوت: آية ٢٧.
(٢) سورة مريم: آية ٥٨.

عاصم بن أبي النَّجود، وحمزة بن حبيب الزيات، وعلي بن حمزة الكسائي، وأما القراء الثلاثة فوق هؤلاء السبعة فهم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني، ويعقوب الحضرمي قارئ البصرة، وخلف العاشر قارئ الكوفة، وإنما قلت القراء السبعة والثلاثة فوق السبعة لما حصل من خلاف عند علماء القرون المتوسطة: هل القراءات المتواترة المقبولة محصورة في القراء السبعة أو يضاف عليهم هؤلاء الثلاث، ثم إنه قد استقر الإجماع بعد ذلك على قبول ما صح من قراءة القراء العشرة كلهم، سواء ذلك من طريق الشاطبية والدُّرَّة «العشر الصغرى» أو من طريق الطيبة «العشر الكبرى»، والفرق بين العشر الكبرى والصغرى هو كثرة وجوه الأداء وطرائق نطق بعض الكلمات، وهو ما يسمى في علم القراءات: الأصول والفَرْش.

وحفظت أبياتًا متفرقة في التجويد والقراءات، كان الشيخ أيمن -حفظه الله تعالى- يمليها عليّ تبلغ في مجموعها قرابة مائة بيت فيما أظن وأُقدِّر.

- وحفظت - فيما سوى القراءات - ستمائة بيت من أول «مراقي السعود» للشيخ عبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، وهي منظومة محكمة في علم الأصول على مذهب الإمام مالك.

وحفظت «الرحبية» في علم الفرائض للإمام علي الرحبي[1]، وهي منظومة شهيرة في قرابة رُبع ألف من الأبيات.

وحفظت غير ذلك أبياتًا مفرقة في بعض العلوم الشرعية، وبعض القصائد الأدبية.

---

(١) محمد بن علي بن محمد الرحبي، أبو عبد الله، المعروف بابن المُتقنة. ولد في رحبة مالك بن طوق سنة ٤٩٧ وهو عالم بالفرائض، شافعي. له عدة تصانيف. توفي رحمه الله في الرحبة سنة ٥٧٧ انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٧٩.

وهذه المنظومات أنفقت في حفظها أجمل وأحسن أوقاتي، ومعظمها حفظته خارج البلاد عندما كنت أسافر في رحلات وظيفية فأبيت في الفنادق ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا أو أكثر، وكانت نفسي تنازعني لأقرأ ما أحب قراءته من كتب لكني كنت أوثر الحفظ، وكانت نفسي تنازعني للنزول لأرى معالم البلاد التي أنزل فيها لكني كنت أفضل البقاء في الغرفة للحفظ، والحفظ -كما يعلم من عاناه- أمر مملول، ثقيل على النفس، خاصة منظومات القراءات المليئة بالرموز والإشارات، وإليكم معشر مَن يريد أن يحفظ رأيي بعد معاناة مع الحفظ بلغت قرابة عشرين سنة، والله المستعان:

أولاً: قد بدأت في حفظ المنظومات في سن الحادية والعشرين، وهي سن متأخرة للحفظ كما هو معلوم؛ فقد جرت عادة السلف والخلف على أن حفظ القرآن والمنظومات والمتون يكون بين الخامسة والخامسة عشرة، وهي سن الصفاء الذهني، والبعد عن العلائق والأشغال، والأهل والأولاد، والغموم والهموم؛ فلذلك كانوا يحفظون كثيرًا، وكان حفظهم متينًا، وهذا في الجملة، وهو صادق على الأكثر الأغلب من الحفاظ.

قال قتادة -رحمه الله تعالى-:

«الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر»[1].

وقال معمر:

سمعت من قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة، فما شيء سمعته في تلك السنين إلا وكأنه مكتوب في صدري[2].

---

(1) «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٢٧٥.

(2) المصدر السابق: ٧/ ٦.

قال ابن الجوزي[1] -رحمه الله تعالى-:

«فمن رزق ولدًا فليجتهد معه والتوفيق من وراء ذلك، فينبغي له أن يعوده النظافة والطهارة من الصغر، ويثقفه بالآداب، فإذا بلغ خمس سنين أخذه بحفظ العلم، وسنبين فيما بعد ترتيب المحفوظات، فإن الحفظ في الصغر نقش في حجر»[2].

وقال -رحمه الله- أيضًا:

«إذا علت السن لم يقدر على الحفظ المهم»[3].

أما أنا فقد بدأت الحفظ في أول العشرينيات من عمري، وكنت قد قاربت على الزواج، وابتليت مبكرًا بالأولاد، وكانت الدعوة إلى الله - تعالى - شغلي الشاغل في الليل والنهار، وعندي وظيفة تشغلني كثيرًا، وهموم العالم الإسلامي الكثيرة يمتلئ بها قلبي وعقلي، فلذلك كله أرى اليوم -والله أعلم- أني ابتدأت الحفظ في وقت متأخر جدًا، لكن لحماستي وقلة من يرشدني لم أجد من نفسي إزاء الحفظ سوى الحماسة والهمة والرغبة القوية، ولم أنظر لكل العوامل الأخرى - التي ذكرتها آنفًا - التي تحول بين المرء ومراده من جودة الحفظ، وسهولته.

ثانيًا: إن الحفظ في سن متأخرة يكون -في الغالب- غير متين، وحفظي كان

(١) الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزيّ، ينتهي نسبه إلى بكر الصديق رضي الله عنه، وولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأسًا في التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة. توفي سنة ٥٩٧ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥-٣٨٤.

(٢) «الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي: ٩.

(٣) المصدر السابق: ١٥.

كذلك بسبب ما ذكرته من أشغال وعلائق، وبسبب استعجالي للحفظ ومسابقة الزمان، والحفظ غير المتين يكلف صاحبه كثيراً من العنت والحرج، ويكلفه من المراجعة أضعاف أضعاف ما يتكلف منها صاحب الحفظ المتين، فإذا اجتمع للحافظ قلة المراجعة -كما سأوضح في الجانب الآتي- وعدم متانة الحفظ كان ذلك كمن زاد الطين بلّة، وكمن جمع الضِّغث على الإبّالة.

ثالثًا: الحفظ لا بد له من مراجعة وإلا ضاع وذهب أدراج الرياح، ولا أظن أني قد كابدت شيئًا في الحياة وعانيت منه قدر مكابدتي لمراجعة محفوظاتي، ولا زالت نفسي بعلائقها وأشغالها ونوازعها تدافعني وأدافعها إلى أن غلبتني تمامًا، فلي اليوم سنين طويلة لم أراجع ما حفظته من المنظومات حتى أني أخشى أن تكون قد أصبحت كأمس الغابر، وذكرى الغافل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولذلك كله لم أجد في صدر شبابي من يقول لي: ويحك إلى أين أنت ذاهب في حفظك هذا؟ وماذا تصنع به إذا أحاطت بك الأشغال من كل جانب؟ وكيف ستجد الوقت مستقبلاً لمراجعة ما حفظت؟

هذا وقد كان كثير من السلف والخلف متفرغين للمراجعة، يقدمونها على كل شيء، أما أنا فلا أستطيع هذا، ولا أقدر عليه، فلذلك أنصح طالب العلم المريد للحفظ أن ينظر في شأنه وحاله، وهل هو قادر على أن يبقي ما حفظه في قلبه وعقله بمراجعة دائبة دائمة إلى أن يتوفاه الله تعالى؟ فإن كان يظن من نفسه القدرة فحيّهلا بالحفظ، وإن ظن من نفسه غير ذلك فلا يضيع أيامه، ولا يحفظ إلا بمقدار يرى أنه يسهل عليه مراجعته حتى لو شُغل بعد ذلك في مستقبل أيامه.

رابعًا: قد حفظت منظومة «طيبة النشر في القراءات العشر» وهي ألفية، حفظتها في قرابة سنة، ولا تسألوا معاشر القراء عما كابدته لأحفظها، ثم إني اليوم لم أعد أذكر منها إلا القليل، ولا أدري سببًا يدعوني لمراجعتها -وأنا لا أستطيع المراجعة الآن- لأني لا أنوي القراءة بمضمونها، فقد اكتفيت بقراءة القراءات العشر الصغرى من طريقي الشاطبية والدرة، ولا أُراني اليوم قادرًا على قراءة أي شيء آخر.

وحفظت ستمائة بيت من منظومة «مراقي السعود» ولم أكن في حاجة لحفظها، ذلك أني وإن درست الأصول دراسة نظامية في كلية الشريعة، ودراسة أخرى على مشايخ، لكني لم أكن أنوي أن أتخصص في علم الأصول فلماذا حفظتها إذن؟ وهذا من الأخطاء المنهجية التي يقع فيها طالب العلم المبتدئ الذي لا يجد من يوجهه ولا من يأخذ بيده، فالحفظ يصلح لمن يريد أن يتخصص في العلم الذي حفظ منظوماته، أما الذي يريد أن يدرس علمًا ما ليعرفه ويطلع على مسائله دون التوغل فيه للمتخصص وتدريس الطلاب فلا يصلح الحفظ له، والله أعلم.

ومرادي من سَوْق ما سقته في هذا الجانب الرابع أن أبين أنّ طالب العلم لا يصلح له اليوم أن يحفظ كل ما يقع تحت يده أو ما هو في مقدوره أن يحفظه، بل يحفظ ما يرى أنه سيفيده في حاضره ومستقبله وأنه سيستطيع مراجعته بإذن الله تعالى.

خامسًا: عوض أن يحفظ طالب العلم ما لا حاجة له ماسةً في حفظه، فليحفظ كتاب الله -تعالى- إن لم يكن له حافظًا، وليحفظ أحاديث من أحاديث

رسول الله ﷺ، فهذا أعْود عليه بالفائدة، وأحسن له في أُخراه، وأفضل في دعوة الناس، وأثبت له في قلبه وعقله، وأدعى بأن يراجع ما حفظه لعظم خسارته لو فرط فيه.

وعندي لو أن الطالب حفظ عيون الأدب الإسلامي العربي الرائع لكان أعود له بالفائدة من أن يحفظ ما لا حاجة له في حفظه مما يُعد في حقه توسعًا ليس محسوبًا بعناية، كما أوضحت من قبل.

قال الإمام ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-:

«أول ما ينبغي تقديمه: مقدمةٌ في الاعتقاد تشتمل على الدليل على معرفة الله -سبحانه- ويذكر فيها ما لا بد منه، ثم يعرف الواجبات، ثم حفظ القرآن، ثم سماع الحديث، ولا بد من حفظ مقدمة في النحو يقوَّم بها اللسان، والفقه عمدة العلوم، وجمع العلوم ممدوح.

إلا أن أقوامًا أذهبوا الأعمار في حفظ النحو واللغة، وإنما يعرف بها غريب القرآن والحديث وما يفضل عن ذلك ليس بمذموم غير أن غيره أهم منه.

وأن أقوامًا أذهبوا أزمانهم في علوم القرآن، فاشتغلوا بما غيره أصلح منه من الشواذ المهجورة، والعمر أنفس من تضييعه في هذا.

وإن أقوامًا أذهبوا أعمارهم في حفظ طرق الحديث، ولعمري إن ذلك حسن إلا أن تقديم غير ذلك أهم.

فنرى أكثر هؤلاء المذكورين لا يعرفون الفقه الذي هو ألزم من ذلك، ومتى أمعن طالب الحديث في السماع والكتابة ذهب زمان الحفظ»[1].

(١) المصدر السابق: ١٥.

سادسًا : وهو مهم أني رُزقت حافظة متوسطة، ليست بقوية ولا ضعيفة، ومَن كان حاله كذلك فإنه يجمل به أن يتريث طويلاً في تقرير حفظ ما يريد حفظه حتى لا تخونه ذاكرته في مستقبل أيامه، ولا تسعفه على إبقاء حفظ ما حفظه، والله المستعان.

وأما السلف ممن نُقِل لنا حفظهم فقد كانت حافظتهم شيئًا عجبًا، وكذلك كثير من الخلف والمعاصرين، فمن كان كذلك سهل عليه الحفظ.

وأخبار العرب الأوائل في الحفظ السريع القوي هي أمر مدهش، متواتر، وحسبي أن أورد منها نتفًا يسيرة، فقد قال التَّوزي[1]،رحمه الله تعالى:

«سمعت أبا عبيدة[2] يقول: اختلفت إلى يونس أربعين سنة كل يوم أملأ ألواحي من حفظه وانصرف».

«وقال أبو السمح الطائي[3]:

كنت أسمع عمومتي في المجلس ينشدون الشعر فإذا استعدتهم زجروني وسبوني وقالوا: تسمع شيئًا ولا تحفظه».

---

(١) أبو محمد عبدالله بن محمد التوزي القرشي مولاهم اللغوي البصري، من العلماء بالشعر والنحو واللغة. مات سنة ٢٣٨، أخبار النحويين: ٩٥.

(٢) معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري الإخباري النحوي النسابة، صاحب التصانيف. توفي سنة ٢١٠هـ. أخبار النحويين: ٨.

(٣) أبو السمح الطائي أحد فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم علماء اللغة وحملة الأشعار، أحضر إلى بغداد في أيام المعتز ما بين سنة ٢٥٢و٢٥٥هـ ليؤخذ عنه. الفهرست: ٤٧، الإنباء: ١١٦/٤.

وقال الشعبي، رحمه الله تعالى:

«ما وضعت سوداء في بيضاء قط إلا وأنا أحفظها، ولا حدثني أحد بحديث فاحتجت إلى أن يعيده عليّ»[1].

وخلاصة رأيي في الحفظ أن الطالب ينبغي له أن يحفظ من المنظومات ما سيتخصص في تدريس علمها في مستقبل أيامه، أما أن يحفظ منظومات في كل العلوم أو جُلها فهذا غير مستساغ في زماننا هذا إلا بما ذكرته آنفًا من ضوابط، والله المستعان.

ولعل سائلاً يسأل: أو لست متخصصًا في القراءات؟

وأقول: قد قرأت بالروايات وكنت شغفًا بها، لكن حوادث الأيام صرفتني عن التخصص فيها وإقرائها الناس، ولهذا لم أُعنَ بمراجعة محفوظاتي فيها.

وقل الشيء نفسه في علم الفرائض والأصول.

●●●

(١) «الحث على حفظ العلم» لأبي هلال العسكري: ٢٦-٢٧.

المبحث الثامن

تقويم طلبي العلم الشرعي

قد مَرّ عليّ الآن قرابة أربعين سنة في طلب العلم الشرعي، وهي مدة تصلح للتقويم والمراجعة؛ ولهذا فإني أقول مستعينًا بالله ومتوكلاً عليه:

أولاً: لم يكن هناك مَن يرشدني في بدايات طلب العلم، ليبين لي ما الذي ينبغي سلوكه من طرائق طلب العلم، وماذا أطلب أولاً، وما الذي يتلوه وهكذا؛ وذلك لأن المرشدين من المشايخ وطلبة العلم في ذلك الزمان نهاية القرن الرابع عشر الهجري/ نهاية السبعينيات الميلادية في جدة كانوا قلائل جدًا، بل أستطيع أن أقول إنهم كانوا نادرين، شبه مفقودين، ومَن وُجد منهم فهو في معزل عن الشباب وتوجيههم؛ ولذلك كان عليَّ أن أشق طريقي بنفسي معتمدًا على الله -تعالى- متوكلاً عليه، مجتهدًا في ذلك ما استطعت.

ثانيًا: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كنت لأطلب كل ما طلبته، ولتخيرت منه تخيرًا مناسبًا لحالي وشأني، وقد ذكرت بعض ذلك في المبحث السابق، لكني استفدت على كل حال -بفضل الله تعالى- في كل ما طلبته، وأرجو في ذلك الأجر في العُقبى، إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: قد فاتني جملة من المشايخ فلم ألقهم، وكنت لهم معاصرًا وقادرًا على القراءة عليهم، وأُعيد هذا إلى قلة مَن يرشد ويوجه، كما بينت في الفقرة الأولى آنفًا، وإلى شيء من الأثرة وجدته في بعض المشايخ وطلاب العلم، غفر الله لهم.

رابعًا: قد وجدت بعض مَن قرأت عليهم من المشايخ يخالف علمه بعض عمله، وقوله بعض سلوكه وخلقه، وقد أتعبني هذا الأمر، ونغص عليّ، وكدّر عليّ حالي، لكن عزمت على ألا يؤثر ذلك عليّ في ترك طلب العلم عليه، وقد كان شيخي الشيخ الدكتور أيمن سويد -حفظه الله تعالى- يخبرني أن بعض مشايخه أخبره أنه كان إذا خرج إلى شيخه يدعو الله تعالى قائلاً: اللهم أخف عني عيب شيخي حتى أستفيد منه، وحقًا ما قال ذلك الشيخ.

خامسًا: قد مكنني الله -تعالى- من الجمع بين طلب العلم الطبيعي التقني والعلم الشرعي، وذلك -والله تعالى أعلم- لأن دراستي الطيرانَ وعملي بعد ذلك طيارًا مكنتني من ذلك؛ وهذا لأن دراسة الطيران سهلة إذا قُورنت بدراسة الطب والهندسة مثلاً، ولأن معدل عمل الطيار هو خمسة عشر يومًا إلى ١٨ يومًا وباقي الشهر إجازة، وإنما قلت هذا لأن كثيرًا من الناس سألني: كيف جمعت بين الأمرين، ومرادي مما سقته آنفًا أن بعض طلاب العلم الطبيعي قد لا يستطيعون صنع الشيء نفسه على أنهم ربما كانوا أذكى مني وأجود قريحة وأحسن فهمًا، لكن تخصصاتهم العلمية لا تسمح لهم بوقت فراغ طويل نسبيًا يُمكنهم من صنيع ما وفقني الله -تعالى- لصنيعه، وذلك نحو الأطباء والمهندسين ومن يماثلهم في صعوبة الدراسة والانشغال في الوظيفة، وإنما قلت هذا حتى لا يبتئس أولئك إذا أرادوا الجمع بين الأمرين فلم يمكنهم ذلك، وقد أوضحت ذلك بأبسط مما هنا في كتابي «التنازع والتوازن في حياة المسلم».

سادسًا: يسر الله -تعالى- لي مجموعة من المشايخ كانوا يأخذونني بالأدب قبل العلم، وربما قسوا عليّ لذلك لكنهم أصابوا في ذلك كل الإصابة، وعلى

رأسهم مشايخي الثلاثة: الدكتور محمد علي إبراهيم وكان أشدهم تقويمًا لي وعناية بهذا الجانب مني، والشيخ أيمن سويد الذي طال تأديبه لي، وما طال إلا لينفعني، وكذلك الشيخ العلامة عبد الستار فتح الله سعيد الذي ما زال يأخذني بالأدب وأحسن الطرائق إلى يومي هذا، وقد كان شيخي الشيخ سليمان البيرة يعلمني قدراً كبيراً من الأدب لكن على وجه الإشارة والحكاية لا على التصريح والمواجهة، وكل مشايخي لهم فضل كبير عليَّ في هذا الباب، فمن لم يوجهني بقوله وجهني بأدبه ولطفه، رحم الله -تعالى- من مات منهم وحفظ سائرهم.

●●●

المبحث التاسع:

ملحق في دراسة التاريخ

لا يعد التاريخ من أقسام العلوم الشرعية ولا ملحقًا بها، لكني وجدت أن له مكانًا في هذه الرسالة هو أقرب من غيرها من الرسائل؛ لذلك أوردته ها هنا لكن ملحقًا بالرسالة وليس من صلبها.

أما كتاباتي في التاريخ، وما صنعته من مختصرات وتهذيبات واختيارات فقد سقت كل ذلك في رسالة «رحلتي مع التأليف».

وسأذكر بعض النقاط المتعلقة بدراستي التاريخية مما يصلح إيرادها ها هنا لمناسبته لسياق هذه الرسالة:

أولاً: أنا لم أدرس التاريخ دراسة نظامية في كلية أو معهد، ولم أقرأه على شيخ؛ إذ لا أعرف اليوم شيخًا يُقرئ التاريخ سواء كان نصوصًا أو قواعدَ وضوابط، وإنما الدراسة الوحيدة النظامية للتاريخ التي درستها هي التي كانت في المدارس، وفيها كثير من العوار في المنهج التاريخي وفي مدرس المادة، أما المنهج التاريخي فيوردُ نصوصًا جامدة مبتورة عن واقع الحياة، ليس فيها عبر ولا عظات، ولا فيها ربط بواقع الحياة، وليس فيها اتصال حلقات الزمان بعضها ببعض، إنما هو عرض جاف ممل، ينفر الطالب ويبعده من المادة كل البعد.

أما المدرسون فهم - أيضًا- ليسوا صالحين لتدريس التاريخ كما ينبغي أن يُدرّس، وهم معذورون ففاقد الشيء لا يعطيه، فأغلبهم عن الالتزام بالدين بمنأى، وكلهم لم يُعَلَّموا في كليات التاريخ العلمية كيف يدرسون التاريخ ويدرِّسونه للطلاب على وجه قوي خاصة المدرسين الذين درّسوني في المدرسة في زمن ما قبل الصحوة، وقد ذكرت بعض أحوالهم في المبحث الأول من هذه الرسالة.

ثانيًا: قد درست بعض ضوابط وقواعد في علم التاريخ أثناء دراستي العلومَ الشرعية مثل علم الجرح والتعديل، وعلم دراسة الأسانيد، وعلم قواعد الحديث وغير ذلك، ولا يخفى صلة ذلك ببعض جوانب علم التاريخ كعلم التراجم «سير حياة الأشخاص».

ودرست بعض القواعد والضوابط في علم التاريخ دراسة ذاتية بقراءتي للكتب المصنفة في هذا الشأن في العصر الحديث، وقد كتبها كُتّاب متخصصون في التاريخ كالدكتور عماد الدين خليل، والدكتور أكرم ضياء العمري العراقيين حفظهما الله تعالى ونفع بهما، أو مهتمون به كالدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله تعالى.

وقد بينت جوانب من هذا في رباعيتي التي كتبتها في علم التاريخ، وهي «كيفية قراءة التاريخ وفهمه»، و«إعداد المؤرخ الثقة»، و«التراجم وأثرها في السلوك الإنساني» و«تعريف موجز بأشهر كتب التاريخ».

ويا حبذا لو تفرغ أستاذ ضليع في علم التاريخ ليدرسه للطلبة على وجه حسن؛ إذ إني رأيت أن أكثر طلاب العلم الذي قابلتهم يرغبون في معرفة التاريخ وسبر أغواره لكنهم لا يحسنون ذلك ولا يتقنونه، والله المستعان.

●●●

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فتلك كانت وريقات موجزات في كيفية طلبي العلم، لعل الله -تعالى- أن ينفع بها، وليس معنى ذلك أني فرغت من الطلب، أو استغنيت عن المشايخ، لا فأنا ما زلت آوي إلى كنفهم بين الحين والآخر مسترشداً مستشيراً مستوضحًا، فهم الذين يُستضاء برأيهم، وينتفع بعلمهم، وقد عزمت على الطلب إلى أن ألقى الله -تعالى- فمن ظن نفسه قد علم فقد جهل، أعوذ بالله من ذلك، وأستغفره وأتوب إليه إن ظننت نفسي ساعة من الدهر كذلك.

وما كتبت هذا الذي كتبته فخراً ولا طلبًا لسمعة، ولا رغبة في مكانة، إنما كتبته لأمرين اثنين:

أولهما: كتبته نزولاً على رغبة الكثيرين في معرفة طريقتي في طلب العلم.

ثانيهما: تدوين هذه الرسالة يعد جزءاً من «ذكرياتي» التي أكتب جزءاً منها في هذه الأيام، وعجلت بإخراج هذا ليكون أدعى إلى قراءته لوجازته، ولو جعلته في كتاب الذكريات الكبير فلربما غاب في طياته، وانطوى في غياباته.

والله -تعالى- هو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

●●●

الآن بالمكتبات



١= رحلتي مع القراءة ٢= رحلتي في طلب العلم ٣= رحلتي مع التأليف



٤= التعليم والإعلام ٥= مذكرات طيار

